كلمـــا مـــر فـــوقـــهن طـليح عـاد من حـــسنهن غـيـــر طليحِ
فـانهـضـوا أيّهـا المحبـون مـثلى لنـرى ذات حـــسنـهـــا المملوح
هـكذا يـربح الـزمـــــــان وإلاّ كل عـــيش ســـواه غـــيـــر ربيح

رجع إلى نظم ابن خميس رحمه الله

ومن بديع نظمه قصيدة مدح الوزير ابن الحكيم.

قال ابن الخطيب: وهى مـن مشاهيـر أمداحه فـيه، وكتب بهـا إليه من ألمرية، وألم فيها بذكر بلده تلمسان، وما حل بها من البلاء والحصار فى ذلك التاريخ من قبل السلطان أبى يعقـوب يوسف ابن السلطان المجاهد الكبير أبى يوسف يعقوب بن عـبد الحق، وقد رحل الشيح الولى أبو زيد عـبد الرحمن الهزميرى نفعنا الله ببركات من بلده أغمات للشفاعة عند السلطان أبى يعقوب فى أهل تلمسان المحصورين(١)، فلم يقبل شفاعتهـم، فقال الشيخ سيدى أبو زيد كلاما مـعناه: إنَّ سَعَادَةَ يقضى هذا، ورجع الشـيخ إلى فاس، فاتفق أن هذا العبد كان مع السلطان فى الحمام، وكان له عليه حقد، فانتهز فيه الفرصة ووجـأه بخنجر، فـكان فى ذلك حتـفـه، فنفس الله عن أهل تلمـسان بعـد حـصارها نحـو العـشر سنين. ولّما وصل الخـبـر إلى سيـدى أبى زيد بموت السلطان قال: وعبد الرحمن يَمُّوت، يعـنى نفسَه؛ و«يَمُّوت»: بتشديد الميم، على لغة البربر؛ فتوفى رحـمه الله ودفن بمسجد الصفارين(٢)، وقبره مشهور مقصود الإجابة، نفعنا الله به، وقد زرته مرارا لا أحصيها، ودعوت الله عنده بما أرجو قبوله.

وقد أشـار أبو عبد الله بن خمـيس فى هذه القصيدة إلى ذلك الحـصار

(١) العبارة فى سائر الأصول فيها سقط وتحريف، وقد اعتمدنا فى تكملتها وتصويبها على ما ورد فى نيل الابتهاج: ج١ ص ٢٦٣ وما اقتضاه السياق.

(٢) فى سائر الأصول: «الصابرين» والمثبت من نيل الابتهاج.

وكان من الاتفاق الغريب، سرعة وقوع ما تمناه ابن خميس لتلمسان هذه من الخبر، بعد طول المحنة، واشتداد البلاء، ولم يتأخر ذلك عن تاريخ القصيدة غير أربعة أشهر.

ونص القصيدة[1]:

سل الريح لم تسعد السفن أنواء ... فعند صباها من تلمسان أنباء

وفى خفقان البرق منها إشارة ... إليك بما تنمى إليها وإيماء

تمر الليالى ليلة بعد ليلة ... وللأذن إصغاء وللعين إكلاء

وإنى لأصبو للصبا كلما سرت ... وللنجم مهما كان للنجم إسراء

وأهدى إليها كل يوم تحية ... وفى رد إهداء التحية إهداء

واستجلب النوم الغرار ومضجعى ... قتاد كما شاءت نواها وسلاء

لعل خيالا من لديها يمر بى ... ففى مره بى من جوى الشوق إبراء

وكيف خلوص الطيف منها ودونها ... عيون لها فى كل طلعة راء

وإنى لمشتاق إليها ومُنْبِئٌ ... ببعض اشتياقى لو تمكن إنباء

وكم قائل تفنى غراما بحبها ... وقد أخلفت منها ملاء وأملاء

لعشرة أعوام عليها تجرمت ... إذا ما مضى قيظ بها جاء إهراء

يطنب فيها عائثون وخرب ... ويرحل عنها قاطعون وتناء

كأن رماح الناهبين لملكها ... قداح وأموال المنازل أبداء

فلا تبغين فيها مناخًا لراكب ... فقد قلصت منها ظلال وأفياء

---

(١) نفح الطيب ج٥ ص ٣٧٦.

ومن عجبٍ أن طال سقمى ونزعها ... وقسم أضناء عليها وأطناء
وكم أرجفوا غيظًا بها ثم أرجئوا ... فيكذب إرجاف ويصدق إرجاء
يرددها عيابها الدهر مثلما ... يردد حرف الفاء فى النطق فأفاء
فيا من لا نال الردى منه ما اشتهى ... ترى هل لعمر الأنس بعدك إنساء
وهل للظى الحرب التى فيك تلتظى ... إذا ما انقضت أيام بؤسك إطفاء
وهل لى زمان أرتجى فيه عودةً ... إليك ووجه البشر أزهر وضاء
فياهى مالى إن هلكت ولم أقل ... لصحبى بها الغر الكرام ألا هاءوا
ولم أطرق الدرب الذى كنت طارقًا ... لعادٍ وبدر الأفق أسمع مشناء
أُطيف به حتى تهر كلابه ... وقد نام عساس وهوم سباء
ولا صاحب إلاّ حسام ولهذم ... وطرف لخد الليل مذ كان وطاء
واسحم قارى كشعرى حلكة ... تلألأ فيه من سنى الصبح أضواء
فما لشربى فى سواك مزازة ... ولا لطعمى دون مائك إمراء
ويا دارى الأولى بدرب مغيلةٍ ... وقد جد عيث فى بلاها وإرداء
أما آن أن يحمى حماك كعهده ... ويجتال أحماس عليه وأحماء
أما آن أنَّ يعشو لنارك طارق ... جنيب له رفع إليك ودئداء
يرجى نوالا أو يؤمل دعوة ... فما زال قارٍ فى ذراك وقُرّاء
أحن لها ما أطئت النيب حولها ... وما عاقها عن مورد الماء أظماء
فما فاتها منى نزاع على النوى ... ولا فاتنى منها على القرب إجشاء
كذلك جدى فى صحابى وأسرتى ... ومن لى به من أهل ودى إرفاء
ولولا جوار ابن الحكيم محمّد ... لما فات نفسى من بنى الدهر إقماء

حـمانـى فلم تنبت مـحلى نوائب ... بســـوء ولم ترزأ فـــؤادى أرزاء
وأكـفـأ بيـتى فـى كـفـالة جـاهه ... فصـاروا عبيدا لى وهم لى أكـفاء
يؤمـون قـصـدى طاعة ومـحـبـة ... فما عـفته عافـوا وما شئتـه شاءوا
دعـانى إلى المجد الذى كنت آمـلا ... فلم يك لى عن دعـوة المجد إبطاء
وبوأنى من هـضـبـة العـز تـلعـةً ... يناجى السهـا منها صـعود وطأطاء
يشـيـعنى منهـا إذا سـرت حـافظ ... ويكلـؤنى منهـــا إذا نمت كـــلاء
ولا مـثل نومى فى كـفالـة غيـره ... ولـلـذئـب إلمـام ولـلـصـل إلمـاء
بغـيـضـة لـيث أو بمرقب خـارب ... تبـز كـسـا فـيـــه وتقطع أكـسـاء
إذا كـان لى من نائب الملك كـافل ... فـفى حـيثـمـا هومت كن وإدفـاء
وأخـوان صـدقٍ من صنائع جـاهه ... يبـــادرنـى منهم قـــيـــام وإيلاء
سـراع لما يرجى من الخيـر عندهم ... ومن كل ما يخـشى من الشر أبراء
إليك أبا عـــبـد الإله صنعـتـــهـا ... لزومـيـة فـيهـا لوجـدى إفـشـاء
مـــبـــرأة مما يعـــيب لزومـــهـــا ... إذا عـاب إكـفـاء ســواها وإيطاء
أذعت بهـا السر الذى كـان قبلهـا ... عليـــه لأحناء الجـــوانـح إضناء
وإن لم يـكن الذى كـنت آمـــلا ... وأعـوز إكـلاء فـما عـاز إكـمـاء
ومن يتكف مـفـخـــمـا شكر منةٍ ... فـمـا لى إلى ذاك الـتكلف إلجـاء
إذا منشـــد لم يكن عنـك ومنشئٌ ... فـلا كـان إنشـاد ولا كـان إنشـاء

وابن الحكيم المذكور[1]: هو ذو الوزارتين أبو عبد الله محمّد بن محمد ابن عبد الرحمن بن إبراهيم بن يحيى بن محمّد بن سعد بن محمّد بن فتوح ابن محمّد بن أيوب بن محمّد اللخمى، من أهل رندة، الكاتب الأديب البليغ الشهير الذكر بالأندلس، ويعرف بابن الحكيم.

أصل سلفه من إشبيلية، من أعيانها، ثم انتقلوا إلى رندة؛ وأوّل من انتقل منهم إليها جده محمّد بن فتوح، فى دولة بنى عباد، ويحيى جد والده هو المعروف بالحكيم لطبه، وكانوا قديما يعرفون ببنى فتوح.

قدم ذو الوزارتين أبو عبد الله على حضرة غرناطة أيام السلطان أبى عبد الله محمّد بن محمّد بن نصر، إثر قفوله من الحج، فألحقه بكتّابه، وأقام يكتب له فى ديوان الإنشاء، إلى أنْ توفى هذا السلطان فى ثامن شعبان سنة إحدى وسبع مئة، وتقلد الملك بعده ولى عهده أمير المسلمين، أبو عبد الله محمّد المخلوع، فقلده الوزارة والكتابة، وكان مشركًا معه فى الوزارة الوزير الجليل التقى، أبا سلطان عبد العزيز بن سلطان الدانى، فلما توفى أبو سلطان الدانى، أفرده سلطانه بالوزارة، ولقبه بذى الوزارتين، وصار صاحب أمره ونهيه، إلى أن توفى بحضرة غرناطة قتيلا، غدوة يوم الفطر، مستهل شوال سنة ثمان وسبع مئة، وذلك لتاريخ خلع سلطانه، وخلافة أخيه أمير المسلمين أبى الجيوش مكانه؛ ومولده ببلده رندة فى شهر ربيع الأول سنة ستين وست مئة.

وكان رحمه الله علمًا فى الفضيلة والسراوة ومكارم الأخلاق؛ كريم النفس، واسع الإيثار، متين الحرمة، عالى الهمة، كاتبا بليغا شاعرًا، حسن

(١) نفح الطيب ج٥ ص ٤٩٨.

الخط، يكتب خطوطا على أنواع كلها جليل الانطباع، خطيبا فصيح القلم، زاكى الشيم، مؤثرًا لأهل العلم والأدب، برا بأهل الفضل والحسب، نفقت فى مدته للفضائل أسواق، وأشرقت بإمداده للأفاضل آفاق.

ورحل إلى المشرق، وكانت إجازته البحر من ألمرية، فتقضى فريضة الحج، وأخذ عمن لقى هنالك من الشيوخ، فمشيخته متوافرة. وكان رفيقه فى هذه الوجهة الخطيب أبو عبد الله بن رشيد، فتعاونا على هذا الغرض، وقضيا منه كل نفل ومفترض، واشتركا فيمن أخذا عنه من الأعلام، فى كل مقام. وكانت له عناية بالرواية، وولوع بالأدب، وصبابة باقتناء الكتب، جمع من أمهاتها العتيقة، وأصولها الرائقة الأنيقة، ما لم يجمعه فى تلك الأعصر أحد سواه، ولا ظفرت به يداه.

أخذ عنه الخطيب الصالح أبو إسحاق بن أبى العاصى التنوخى، والخطيب أبو عبد الله بن رشيد تَدَبَّج معه، وابنه الوزير الكاتب الأديب الفاضل أبو بكر محمّد بن محمّد بن الحكيم، وغيرهم.

ومدحه الكاتب العلامة أبو الحسن بن الجياب، ومن بديع ما مدحه به قصيدة رائية رائقة، يهنئه فيها بعيد الفطر، وهى قوله[1]:

يا قادما عمت الدنيا بشائره ... أهلا بمقدمك الميمون طائره

ومرحبا بك من عيد تحف به ... من السعادة أجناد تظافره

قدمت فالخلق فى نعمى وفى جذل ... أبدى بك البشر باديه وحاضره

والأرض قد لبست أثواب سندسها ... والروض قد بسمت منه أزاهره

(١) نفح الطيب ج٥ ص ٤٩٩.

حاكت يد الغيث فى ساحاته حللا ... لما سقاها دراكا منه باكره

فلاح فيها من الأنوار باهرها ... وفاح من النوار عاطره

وأم فيها خطيب الطير مرتجلا ... والزهر قد رصعت منه منابره

موشى ثوب طواه الدهر آونة ... فها هو اليوم للأبصار ناشره

فالغصن من نشوة يثنى معاطفه ... والطير من طرب تشدو مزاهره

وللكمام انشقاق عن أزاهرها ... كما بدت لك من خل ضمائره

لله يومك ما أزكى فضائله ... قامت لدين الهدى فيه شعائره!

فكم سريرة فضل فيك قد خبئت ... وكم جمال بدا للناس ظاهره

فافخر بحق على الأيام قاطبة ... فما لفضلك من ندٍ يناظره

فأنت فى عصرنا كابن الحكيم إذا ... قيست بفخر أولى العليا مفاخره

يلتاح منه بأفق الملك نور هدى ... تضاءل منه الشمس مهما لاح زاهره

مجد صميم على عرش السماك سما ... طالت مبانيه واستعلت مظاهره

وزاره الدين والعلم الذى رفعت ... أعلامه والندى الفياض زاخره

وليس هذا ببديع مكارمه ... ساوت أوائله فيه أواخره

يلقى الأمور بصدر منه منشرحٍ ... بحر وآراؤه العظمى جواهره

راعى أمور الرعايا معملاً نظرا ... كمثل علياه معدومًا نظائره

والملك سير فى تدبيره حكمًا ... تنال ما عجزت عنه عسا كره

سياسة الحلم لا بطش يكدرها ... فهو المهيب وما تخشى بوادره

لا يصـــدر الملك إلاّ عن إشـــارته ... فـالرشـــد لا تتـعـداه مـــصـايره
تجـرى الأمـور على أقـصى إرادته ... كـــأنما دهره فـــيـــهـــا يشـــاوره
وكم مـــقـام لـه فى كل مكرمـــةٍ ... أنست مـواردة فـيـــهـا مـصـادره
فـفضلهـا طبق الآفـاق أجمـعهـا ... كـــأنه مـــثل قـد ســـار ســـائره
فليس يجـحـده إلاّ أخـو حـسـدٍ ... يرى الصـبح فـيـعـشى منه ناظره
لا ملك أكـــبـــر من ملـك يدبره ... لا ملك أسـعـــد من ملك يؤازره
يا عـز أمـر به اشـتدت مـضـاربه ... يا حسن ملك به ازدانت مـحاضره
تثنى الـبـلاد وأهلوها بما عـــرفـوا ... ويشـــهـــد الدهر آتيـــه وغـــابره
بشـــرى لآمله الموصـــول مـــأمله ... تعـــسًـا لحـــاسـده المـقطوع دابره
فـالعلم قد أشـرقت نورًا مطالعـه ... والجود قـد أسبلـت سحا مـواطره
والناس فى بشـر والملك فى ظفـر ... عالٍ علـى كل عالى القـدر قاهره
والأرض قـد ملئت أمنا جـوانبهـا ... بيـمن من خلصت فـيـها سـرائره
وإلى أياديه من مـــثنى ومـوحـدةٍ ... تساجل البـحر إنَّ فـاضت زواخره
فكـل يوم تلقـــانا عـــوارفـــه ... كـــساه أمـــواله الطولى دفـــاتره
فـــــمن يؤدى لمـا أولاه من نـعمٍ ... شكرًا ولو أنَّ ســحـبـانًـا يظاهره
يا أيهـا العـيـــد بادر لثم راحـتـه ... فلثـمـهـا خـيـر مـأمـول تبـادره
وافخر بأن قد لقيت ابن الحكيم على ... عـصـر يبـاريك أو دهر تفـاخـره
ولى الصـيام وقد عـظمت حرمـته ... فـــأجـــره لك وافـيـــه ووافـــره

وأقبل العيد فاستقبل به جذلا وأهنأ به قادما عمت بشائره

ومن أحسن ما رُثِى به رحمه الله تعالى، ثلاثة أبيات لبعض الأعلام من أهالى ذلك الزمان، وهى[1]:

قتلوك ظلمًا واعتدوا فى فعلهم حَدَّ الوجوب

ورموك أشلاء وذا أمر قضته لك الغيوب

إن لم يكن لك سيدى قبر فقبرك فى القلوب

قال ابن خاتمة: ومن شعره ما أنشدنى ابنه الوزير أبو بكر، مقدمه على ألمرية، غازيا مع الجيش المنصور، قال أنشدنى أبى رحمه الله تعالى:

ولّما رأيت الشيب حل بمفرقى نذير بتَرْحال الشباب المفارق

رجعت إلى نفسى فقلت لها انظرى إلى ما أرى، هذا ابتداء الحقائق

وأنشدنى شيخنا الخطيب أبو إسحاق بن أبى العاصى إذنا، قال أنشدنى الوزير أبو عبد الله بن الحكيم إن لم يكن سماعه فإجازة[1]:

فقدت حياتى بالمفارق ومن غدا بحال نوى عمن يحب فقد فقدْ

ومن أجل بعدى عن ديار ألفتها جحيم فؤادى قد تلظى وقد وقد

وقد سبقه إلى هذا المعنى القائل[2]:

أوارى أوارىِ بالدموع تجلدًا وكم رمت إطفاء اللهيب وقد وقد

فلا تعذلوا من غاب عنه حبيبه فمن فقد المحبوب مثلى فقد فقد

(١) نفح الطيب ج٥ ص ٥٠٤.

(٢) نفح الطيب ج٥ ص ٥٠٢.

هكذا رواه ابن خاتمة، ورواه غيره هكذا[1]:

أوارى أوارِى والدموع تبينه ومن لى بإطفاء الغرام وقد وقد

وهو الصواب.

قال ابن خاتمة[2]: وأنشدنى رئيس الكتاب الصدر البليغ الفاضل، أبو القاسم عبد الله بن يوسف بن رضوان النجارى، قال: أنشدنى رئيس الكتاب الجليل، أبو محمّد عبد المهيمن بن محمّد الحضرمى، قال: أنشدنى رئيس الكتاب ذو الوزارتين، أبو عبد الله محمّد بن عبد الرحمن بن الحكيم، رحمه الله تعالى:

سح الكتاب وعنه واختم على مكتنه

واحذر عليه من مخا لسة الرقيب بجفنه

واجعل لسانك سجنه كى لا ترى فى سجنه

قال ابن خاتمة: وفى سند هذه القطعة نوع غريب من التسلسل. انتهى.

ومن بديع نظم ذى الوزارتين ابن الحكيم قوله رحمه الله:

يا ليت شعرى هل تطول حياتى حتى أرى هذا الزمان الآتى؟

يا رب إن قدرت لى ببلوغه فاجعله عصرًا بالسرور مواتى

وإن انقضت أيام عمرى قبله فاجعل على ما ترتضيه مماتى

لا شىء للدنيا وللأخرى معا أرجو إذا ضاقت على جهاتى

---

(١) نفح الطيب ج٥ ص ٥٠٢.

(٢) نفح الطيب ج٥ ص ٥٠٢.

إلاّ يقـــينى أنَّ جـودك فـــوق مـا يرجـى وأنك غـــافـــر الزلات

ومن نثره آخـر فصل خاطب به الـشيخ أبا على الجراوى، رحـمه الله، قوله:

وهأنا أجرى معه على حسن معتقده، وأكلمه فى هذا الغرض إلى ما رآه بمقتضى تودده، وأجـيز له ولولديه، اقر الله بهما عينه، وجـمع بينهما وبينه، رواية جميع مـا حملته ونقلته، وحـسن اطلاعه يفصل من ذلك مـا أجملته، فقد أطلقت لهم الإذن فى جميعه، وأبحت لهم الحمل عنى ولهم الاختيار فى تنويعه، والله عز وجل يخص أعمالنا لذاته، ويجعلها ابتغاء مرضاته.

قال هذا وكتبـه محمّد بن عبد الرحمن بن إبراهيم بن يحـيى بن محمّد اللخمى بن الحكيم، عفا الله عنه، حَامِـدًا لله عز وجل، ومصليا على رسوله المصطفى، ومسلمًـا عليه وعلى آله، فى منتصف جمـادى الآخرة، عام ثلاث وسبع مئة.

وحكى غـير واحـد أنَّ ذا الوزارتين ابن الحكيم المذكـور لمّا اجتـمع مع الفقيه الجليل الكاتب ابن أبى مدين أنشده ابن مدين رحمه الله تعالى[1]:

عـشـقـتكم بالسـمع قـبل لقـاكم وسمع الـفتى يهـوى لعمرى كـطرفه

وحـــببنى ذكـــر الجليـس إليكم فلمـا التـقينـا كنتم فـوق وصفـه

فأنشده ذو الوزارتين[2]:

ما زلت أسمع عن علياك كل سنى أنهى من الشمس أو أجلى من القمرِ

(١) نفح الطيب ٥/٥٠٣.

(٢) نفح الطيب ٥/٥٠٣.

حتى رأى بصرى فوق الذى سمعت أذنى فوفق بين السمع والبصرِ

وتذكرت هنا قول الحاج الكاتب أبى إسحاق الحسناوى رحمه الله تعالى:

سحر البيان بنانى صار يعقده والنفث فى عقده من منطقى الحسن

لا أنشد المرء يلقانى ويبصرنى: أنا المعيدى فاسمع بى ولا ترنى

وكان الوزير ابن الحكيم المذكور كما أسلفناه رفيق ابن رشيد الفهرى فى رحلته الحجازية وقد اشتملت رحلة ابن رشيد على ما رأى وروى.

وهو محمّد بن عمر بن عمر بن محمّد إدريس بن عبد الله بن سعيد ابن مسعود بن حسن بن محمّد الفهرى[1]، من أهل سبته، يكنى أبا عبد الله، ويعرف بابن رشيد، - وكأنه تصغير رشد - الخطيب المحدث الشهير.

رحل إلى المشرق لأداء فريضة الحج ولقاء أهل العلم سنة ثلاث وثمانين وست مئة، وكانت إجازته البحر من ألمرية فتلاقى بها هو وذو الوزارتين أبو عبد الله بن الحكيم المذكور وكان قصدهما واحد ومسعاهما متعاضدًا؛ فترافقا فى السفر، كما ترافقا فى الوطر. فدخل إفريقية ومصر والشام والحجاز وأخذ عمن لقى من الأئمة الأعلام، وأكثر من هذا الشان وأجاد فيه الضبط والإتقان وتوسع فى الرواية وذهب فى ذلك إلى أبعد غاية. وكان له تحقق بعلوم الحديث وبرجاله، وضبط إسناده، ومعرفة انقطاعه واتصاله، إمامًا فى هذا الشأن مشارًا إليه فى هذا الفن معتمدًا عليه مع كمال اثقة وشهرة العدالة.

قال القاضى أبو البركات ابن الحاج فى حقه: ابن رشيد ثقة عدل من

(١) جذوة الاقتباس ١/ ٢٨٩.

أهل هذا الشأن المتحققين به، وكان أيضًا من أهل المعرفة بعلم القراءات وصناعة العربية، وعلم البيان والآداب، والعروض والقوافى، مشاركا فى غير ذلك من الفنون، من خدام الكتاب والسنة، حسن العهد، كريم العشرة، برًا بأصدقائه، فاضلا فى جميع أنحائه، أديبًا بليغًا، ذاكرًا متأدبًا يقرض الشعر على تكلف ويجود النثر ويبصر مواقع حسنه، وأعظم عنايته بعلم الحديث: متنه وسنده ومعرفة رجاله، ولذلك كان جل اشتغاله، وفيه عظم احتفاله، حتى حصل منه على غاية قصده ومنتهى آماله.

قرأ بسبتة بلده على الأستاذ أبى الحسين بن أبى الربيع[1] القرآن العزيز بالقراءات السبع بمضمن كتاب التفسير، وتفقه عليه فى العربية وقيد عنه تقيدًا حسنا على كتاب سيبويه، وأخذ عنه غير ذلك. وقرأ أيضًا الكتاب العزيز على الأستاذ أبى الحسن على بن محمّد الكتامى ابن الخضار بالمقارئ السبعة، وأخذ بألمرية فى اجتيازه عليها، عن الخطيب أبى عبد الله محمّد بن محمّد بن الصائغ، والوزير الأديب أبى جعفر أحمد بن محمّد ابن سلبطور، قيد عنه [من][2] شعره. ورحل فأخذ ببجاية عن الحافظ أبى محمّد عبد العزيز بن عمر القيسى ابن كحيلا نزيلها. وبتونس عن قاضى الجماعة بها، أبى القاسم ابن أبى بكر بن زيتون. وأخذ بإسكندرية عن العدل المبرز سراج الدين أبى بكر بن أحمد بن إسماعيل بن فارس التميمى، والعدل الصالح أبى عبد الله محمّد بن عبد الخالق بن طرخان القرشى. وبالقاهرة عن الحافظ أبى محمّد عبد العظيم بن عبد القوى المنذرى، والأديب الصوفى شهاب الدين أبى عبد

(١) جذوة الاقتباس ١/ ٢٨٩.

(٢) تكملة من جذوة الاقتباس.

الله محمّد بن عبد المنعم بن محمّد بن يوسف بن أحمد الأنصارى، ابن الخيمى، نزيل إيوان الحسين رضى الله عنه من القاهرة. وبدمشق عن شيخ الشيوخ عز الدين أبى العز عبد الله بن عبد المنعم بن على الحرانى، وبقية المسندين فخر الدين أبى الحسن علس بن أحمد بن عبد الواحد المقدسى والمسند أبى الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الملك المقدسى. وبالحرم الشريف عن المحدث الأديب مقيم الحرم الشريف أبى إسحاق عبد الصمد بن عبد الوهاب بن عساكر الدمشقى، وبقية المحدثين مقيم الحرمين أبى عبد الله محمّد بن أبى بكر بن خليل بن إبراهيم المكى. وبالمدينة المشرفة المنورة عن الشيخ الإمام النحوى عفيف الدين أبى محمّد عبد السلام بن محمّد بن مزروع البصرى وغيرهم. وفى أشياخه كثرة، وقد أودعهم رحلته الحافلة التى سماها: «ملء العيبة فيما جمع بطول الغيبة فى الوجهتين الكريمتين إلى مكة وطيبة». وهى أربعة أسفار وقفت عليها بتلمسان، وقد جمع فيها من الفوائد الحديثية والفرائد الأدبية كل غريبة عجيبة.

من تآليفه «ترجمان التراجم»[1] فى إبداء وجه مناسبات تراجم صحيح البخارى لما تحتها مما ترجمت عليه. ومنها «السنن الأبين فى السند المعنعن»، و«المقدمة المعرفة لعلو المسافة والصفة»، و«المحاكمة بين البخارى ومسلم»، و«إحكام التأسيس فى أحكام التجنيس»، و«الإضاءات والإنارات» فى البديع المسماة: «بإيراد المرتع المَرِيع لرائد التسجيع والترصيع» و«وصل القوادم بالخوافى» شرح فيه كتاب القوافى لشيخه أبى الحسن حازم القرطاجنى، وجزء مختصر فى العروض، وتقييد على كتاب سيبويه.

(١) جذوة الاقتباس ١/ ٢٩٠.

وذكر بعضهم أنَّ الإمام ابن رُشيد كان ظاهرى المذهب والمعروف أنّه كان مالكيا والله اعلم.

وكان يعتمد فى شرح كلام البخارى على «المحبر الفصيح فى شرح البخارى الصحيح» لأبى عمرو الصفاقسى المعروف بابن التين، لأجل حضور البربر فى مجلسه، ومعتمدهم المدونة، وأبو عمرو فى هذا الكتاب ينقل المدونة وكلام شُرّاحها عليها.

وتكلم يوما بعد فراغه من إسماع الشمائل، وكانت بالمغرب فتنة على قوله عليه الصلاة والسلام: «بحسب أصحابى القتل» فقال: معنى الحديث أنّه منجيهم من عذاب الله تعالى كما قالوا: بحسبك زيد ثم قال: على أنّه روى النبى ﷺ ذكر فتنة فعظم أمرها فقالوا: يا رسول الله لئن أدركنا هذا الزمان لنهلكن فقال: كلا إن بحسبكم القتل.

ويدل على صحة هذا التأويل ما خرجه أبو داود أنَّ رسول الله ﷺ قال: «أمتى [هذه][1] أمة محرومة ليس عليها عذاب فى الآخرة عذابها فى الدنيا الفتن والزلازل والقتل». وترجم عليه أبو داود: «باب ما يرجى فى القتل» ثم أدخل الحديث تحت الترجمة.

وقال تلميذه أبو إسحاق إبراهيم بن يحيى: أنّه تكلم يوما على قول رسول الله ﷺ: «من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار». فقال: رواه عن النبى ﷺ نحو مائة نفس من الصحابة فيهم العشرة المشهود لهم بالجنة، ولا يعرف حديث مثله، وإن كانت ألفاظه تختلف لكن هو متواتر المعنى.

(١) التكملة عن سنن أبى داود فى كتاب الفتن.

وفى رسمه من حرف الميم من إحاطة ابن الخطيب ما نصه:

حدّثنى بعض شيوخنا قال: قعد يوما على المنبر فظن أنَّ المؤذن الثالث قد فرغ، فقام يخطب والمؤذن قد رفع صوته بأذانه فاستفظع ذلك بعض الحاضرين، وهم آخر بإشعاره وتنبيهه، وكلمه آخر فلم يثنه ذلك عما شرع فيه وقال بديهة: أيّها الناس رحمكم الله إنَّ الواجب لا يبطله المندوب وإن الأذان الذى بعد الأول غير مشروع الوجوب، فتأهبوا [لطلب العلم][1] وتنبهوا وتذكروا قوله تعالى: ﴿... وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ... ﴿٧﴾﴾ [الحشر]، فقد روينا عنه ﷺ أنّه قال: «من قال لأخيه والإمام يخطب أنصت فقد لغا ومن لغا فلا جمعة له». جعلنا الله وإياكم ممن علم فعمل، وعمل فقبل، وأخلص فتخلص.

فكان ذلك مما استدل به على قوة جنانه وانقياد لسانه لبيانه. انتهى.

وتذكرت بهذه القضية من قام من اثنتين ولم يذكر حتى استقل، ومن نسى المضمضة والاستنشاق حتى شرع فى غسل الوجه، وراجعْ شرح ابن ناجى على المدونة، فإنه ذكر أن بعض شيوخه لم يرجع من الخطبة كما فعل ابن رشيد وبعض الأشياخ رجع لما سمع المؤذن وفعل الأول أصوب والله اعلم.

وكان رحمه الله تعالى أعنى ابن رشيد يقول: ليس بالمغرب عالم إلاّ ابن البنا بمراكش، وابن الشاط بسبتة، والقاضى أبا عبد الله محمّد بن محمّد اللخمى قرطبى. ومن المشارقة خلق كثير كابن دقيق العيد، والشريف أبى الحسين العراقى، وأخيه أبى إسحاق، وجماعة.

---

(١) التكملة من جذوة الاقتباس.

وفى تأليف ابن رشيد فى التجنيس يقول صاحبه الفقيه الأديب البارع الفاضل أبو بكر محمّد بن محمّد القالونسى من نظمه حتى طالعه بغرناطة:

أبدع فى التجنيس إنشاءا فليحو فضل السبق إن شاءا
إذ كل من ألف من قبله ما جاء فيه بالذى جاءا

ومن شعر ابن رشيد رحمه الله تعالى (ولنا فيه أسانيد) قوله:

صيام عاشور أتى ندبه فى سنة محكمة قاضيهْ
قال الرسول المصطفى إنه تكفير ذنب السنة الماضيهْ
ومن يوسع يومه لم يزل فى عامه فى عيشة راضيهْ

ومن ذلك قوله:

تغرب ولا تحفل بفرقة معشر تفز بالمنى فى كل ما شئت من حاج[1]
فلولا اغتراب المسك ما حل مفرقا ولولا اغتراب الدر لم يحظ بالتاج

وقوله رحمه الله تعالى فى البحر وقد انبسط عليه ضوء القمر فى ليلة البدر[2]:

انظر إلى البدر وقد مدت أشعته على خضارة حتى ابيض أزرقه
والريح قد صنعت درعا مسامرها حباب ماء يروق العين رونقه

وذكر رحمه الله عن أبى الخير الفضل بن على بن نصر بن عبد الله بن رواحة الأنصارى الخزرجى أنّه أملى عليه بمدينة بلبيس بمصر حرسها الله تعالى:

(١) جذوة الاقتباس ١/ ٢٩١.
(٢) جذوة الاقتباس ١/ ٢٩١.

وأرجـو إن عـجـزت عن الأمـانى أمـــانـا من ذمـــامك يا إلـهى
فلى ظـن أحـــقـــقـــه يقـــينا برحـــمـــتـك التى كل المـنى هى
وأسـأل مـنك عـونا لى علـى مـا أمـــرت بـه، وتركى لـلمنـاهى

وقـال رحـمه الله: من عـمـد إلى أحـاديث خـراش ودينار وأبى هدبة وشبههم، الذين يسميهم أهل الرواية والنقل طيور أَنَس، فمثل هؤلاء لا يعرج عليهم ولا يفرح بعلوهم، وروايتهم شبه الريح، وإنما يكتب حديثهم للتعريف به. وقد جمع الحافظ أبو الطاهر الأصبهانى جـماعة منهم فى بيتين فأحسن، أحسن الله إليـه. أنشدنى المكتـسب الخير المقـيد أبو عـبد الله محـمّد بن أبى العباس أحمـد بن حيان الشاطبى صاحبنا بتونس، قـال أنشدنا الشيخ الخطيب أبو محمّـد بن بركات رحمه الله قـال: قرأت على الحافظ أبى عـمر بن عات قال: سمعت فيما قُرِئ على السلفى رحمه الله تعالى من نظمه:

حـديث ابن نسطور وقـيس ويغنم وبعـــد أشج الغـرب ثـم خـراش
ونســـخـــة دينار ونســـخـــة تِرْبِه أبى هدبة القـيـسى شـبـه فـراش

قال لى أبو عبد الله: قال لنا أبو محـمد، قال لنا أبو عُمر: كان الحافظ السلفى رحـمه الله إذا فرغ من إنـشاده لهمـا ينفخ فى يديه. فمـثل هؤلاء لا يلتفت إليه، ولو بلغ أقصى الممكن فى القرب. انتهى.

ووجد بخط القاضى اليزناسنى ما نصه:

الحمد لله. وقفت على إجازة أبى عـبد الله بن رشيد لستّ العرب بنت عبد المهيـمن الحضرمى مؤرخة بغرة محرم عـام إحدى وعشرين، الذى توفى فيه، وقال أحسن الله افتتاحه واختتامه: ومن لم يكن يعرفنى فإنى:

أنا المذنب الخطاء والعفو واسع ولو لم يكن ذنب لمّا عرف العفو

انتهى.

ولمّا قفل الشيخ ابن رشيد من المشرق عاد إلى بلدة سبتة، فلم يساعده فيها المقدور، ولم يعرف له بها مقدار، فكتب إليه رفيقه الوزير ابن الحكيم يستدعيه إلى حضرة غرناطة، ويعده بنيل كل أمنيّه، رعيا لمّا سلف له معه من الصداقة المرعية، فأعمل الرحلة إليه حتى قدم الحضرة الغرناطية عليه، فألفاه من عناية السلطان تحت جاه واسع، فأهله من ماليه وقرب إليه من أمانيه كل شاسع وأكرم مثواه، وحمد لديه مغبة سراه، وتقدم حينئذ للصلاة والخطبة بالجامع الأعظم بغرناطة، وخول كل كرامة ومبرة. ثم لمّا توفى الأستاذ أبو جعفر بن الزبير عن قضاء المناكح خلفه عليها، فاتصلت له الأثرة بالأثرة، ولم يزل مقيما بحضرة غرناطة منتصبا للإقراء ومركزًا لدائرة القراء، إلى أن قتل الوزير أبو عبد الله بن الحكيم فرحل أبو عبد الله بن الحكيم، فرحل من غرناطة ولحق بحضرة فاس فحل بها تحت عناية، وفى كنف رعاية، وجعل له الأمر السلطانى الاختيار حيث اختار، أو الاستقرار، فاختار التحول إلى مراكش إذ كان قبل قد سكنها، واستحسنها، فورد عليها ورود الإقامة ونزل بها نزول البر والكرامة، وقدم للصلاة والخطبة بجامعها العتيق، وأقام بها سنين يبث بها العلم، ليس له شغل غير التدريس والتحقيق. ثم إن المقام السلطانى دعاه منها بعد مدة إلى حضرة فاس، فانتقل إليها انتقال الإيثار والإيناس، فلحق بحاضرة السلطان، والتحف من الوجاهة والنباهة برداء سابغ الأردان، وصار فى عداد خواصه وآل مجلسه من الخلصاء، إلى أن توفى رحمه الله بفاس فى الثالث والعشرين من شهر محرم سنة إحدى وعشرين وسبع مئة قيل ليلة الاثنين الرابع والعشرين من شهر المحرم. وأما قول من قال

إنه توفى ثامن المحرم فغلط. ودفن خارج باب الفتوح بالروضة المباركة المعروفة بمطرح الجنة حيث تدفن العلماء والصلحاء الواردون فى فاس من الغرباء.

ومولده بسبتة فى شهر رمضان سنة سبع وقيل تسع وخمسين وست مئة.

وروى عنه الجم الغفير كأبى البركات بن الحاج، والأستاذ الخطيب أبى عبد الله بن أبى العاصى التنوخى، وآخرين رحم الله جميعهم ونفعنا بهم.

وقد قدمنا أنَّ ابن الحكيم تدبج معه، ومعنى التدبيج: أن يروى كل واحد من القرينين عن صاحبه.

وكان ذو الوزارتين أبو عبد الله بن الحكيم المقدم الذكر محط رحال الأفاضل، وكم للناس فيه من أمداح وتآليف، وله ألف الشيخ الفقيه المحدث الحافظ أبو القاسم عبد الرحمن بن أبى طالب عبد الله العزفى كتاب «الإشادة بذكر المشتهرين من المتأخرين بالإفادة». وكان أبو القاسم هذا سمع من أبى جعفر بن الزبير وتوفى رحمه الله يوم الأربعاء الثالث عشر من رجب الفرد من عام سبعة عشر وسبع مئة قرب الزوال بالدرب الطويل من فاس المحروسة وتوفى أخوه الشاعر الجليل أبو العباس أحمد بغرناطة فى ذى الحجة من عام ثمانية وتسع مئة.

ومن إنشاداته فى كتاب الإشادة من شعر أخيه أبى العباس المذكور رحمه الله تعالى:

ملكت رق بالجمال فأجمل وحكمت فى قلبى بجورك فاعدل
أنت الأمير على الملاح ومن يجر فى حكمه إلاّ جفونك يعزل
إن قيل أنت البدر فالفضل الذى لك بالكمال ونقصه لم يجهل
لولا الحظوظ لكنت أنت مكانه ولكان دونك فى الحضيض الأسفل
عيناك نازلتا القلوب فكلها إما جريح أو مصاب المقتل
هزت ظباها بعد كسر جفونها فأصيب قلبى فى الرعيل الأول
ما زلت أعذل فى هواك ولم يزل سمعى عن العذال فيك بمعزل
صبحت فى شغل بحبك شاغل عن أن أصيخ إلى كلام العذل
لم أهمل الكتمان لكن أدمعى هملت ولو لم تعصنى لم تهمل
جمع الصحيحين الوفاء مع الهوى قلبى وأملئ الدمع كشف المشكل

وهى طويلة مدح بها الوزير ابن الحكيم وأجاد.

وله من مطلع قصيدة فيه أيضًا:

هذا الصباح فغادنى بصبوح وانهض براحك فهى راحة روحى
لا تكترث لخطوب دهرك واسقنى كأس تحسن منه كل قبيح
واسرح سوام اللفظ بين حدائق ما سائم فى مثلها بمريح
فتنت بزهرة زهرها فتمايلت تختال فى الحبرات بعد مسوح
شقت شقائقها جيوب كمائم أسفا على زق يخر جريح
وعيون نرجسها تلوح شواخصا لوميض برق فى الكئوس مليح

والورد تخـــجلـه أنامل ســـوسن تومـئ إليـــه بـالســـلام وتـوحى
وأتى الربيـع ربوعـهـا بـسـواجع عـجم تـشق فـؤاد كل فـــصـيح
سـجعت تبـشرهـا بعود شـبابهـا فـــأصخ إلـى شق بهـــا وسـطيح
مـالى وللأطلال أسـأل صـامـتـا منهـا وأعـول فـى مـهـامـه فـيح
فى الراح والريحـان شغل شـاغل لى عن عـــيـــافـــة بارح وسـنيح
وأهيم فى ورد الخـــدود وآسـهـــا لا فى عـــرار بالـفـــلاة وشـــيح
وأصـون سمـعى عن مـقلة عـاذل لتـــذللى والحب غـيـــر مـشـــيح
كم عـرضوا لى بـالملام وصرحـوا فعـصيت فى التعويض والتـصريح

ومنها أيضًا:

عـجبـا لهم يلـقـوننى بملامـهم فى حب من يلـقـون بالتـسـبـيح
إن صـوح الروض النضيـر فخـدّه أزهاره أمـنت من التـــصـــويح
وتحـار أعـــين مـبـصـــريه إذا بدا فى ثـقل أرداف وخـــفـــة روح
قلـبى بعـــذلـهم يزيـد توقـــدا لا غـــرو فـى نار تـشب بـريح

وهى طويلة.

ومما أورده فى «الإشـادة» لبـعض الأعـلام وأظنه قـاضى الموحـدين أبا حفص ابن عمر رحمه الله تعالى فى وصف الدنيا كلام بديع نصه:

هذه الدنيا - حفظك الله - كما قد علمته، فأعرض بحلمك عن جهلها وارغب بنفسك عن أهلها، واذكر قبائح أنبائها، واصرم وصل أبنائها، لا ترتع فى روضـهم، ولا تركع فى حـوضهم قل الله ثم ذرهـم فى خوضـهم، وإذا

مررت باللاغين بذكر محاسنها، اللاهين بحسن ظاهرها عن قبح باطنها، فاله عن لهوهم، ومر كريما بلغوهم، مر المهتدى فى سيره، أعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره، فالسيادة والسعادة فى نبذها، لا فى أخذها، وفى تركها، لا فى دركها، وإليك عن وصلها إليك، وعليك بهجرها عليك، واتل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ ... ﴿١٣١﴾﴾ [طه]، وقوله تعالى: ﴿... وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ ... ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف]، واحرص أن تكون منهم فزخرف الدنيا فى نظر العين زين، وفى نظر العقل شين، فغمض عينك تبصر، ولا تمدهما وأقصر، جعلنا الله ممن نظر بقلبه وأبصر بلبه، فأولو الألباب والفكر المخصوص بالذكر والعلم أرفع المزايا، وأوسع العطايا، هو غاية المنال والمَدْرك من ناله أى شىء فاته، ومن فاته أىَّ شىء أدرك، ولا علم إلاّ علم الكتاب والسنة، هما أفضل العطايا والمنة، فمن علمهما ونظر فيهما، وعمل بهما، نال غاية السعادة، وأدرك منتهى السيادة، قال الله تعالى لنبيه الكريم: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾ [الحجر]. هذه المزايا العالية، والعطايا الواسعة الباقية، لا ما نهت عنه الآية الثانية، جعلنا الله ممن أبصر رشده، وذكر مراده، ووجه إليه قصده، ورأى فى أول أمره آخره، وابتغى فيما آتاه الله الدار الآخرة بمنه وفضله. آمين.

يا راكضا فى طلاب الدنيا ... ليس لمن تصرع انتعاش
تتح يا عرضة لرام ... أسهمه بالردى تراش
لم تخش نارا هوى لظاها ... بمن له حولها انحياش
أعذر منك الفراش ألا ... علمت ما يجهل الفراش
تطلبها لا تنام عين ... عنها ولا يستقر جاش
من لك بالرى من شراب ... يشتد من شربه العطاش

دعـــهـــا فطـلابهـــا رعـــاع طاشت بألبـابهم فطاشـوا

واظمـأ لتـروى وكن كـقـوم مـاتوا بها عـفة فـعاشـوا

لـم يردوهـا فـــــهـم رواء وواردوهـا هم الـعطـاش

كـــــأن آمـــالـنا ظبـــــاء ونحن من حَـيْرَةٍ خـراش

لا تأمنن بـهـــا انبـســـــاطا به لأعـــمـارنا انكـمـاش

كـــأن آجـــالنا صـــــقـــور ونحن من تحتها خشخاش

انتهى.

وأبو حفص بن عمر هذا هو القاضى الجليل أبو حفص عمر بن القاضى الجليل أبى محمّد عبد الله بن محـمّد بن عبد الله بن عمر السلمى[1]. وذكر الحافظ ابن الأبار أن أصله من جزيرة شقر. قال: وولد بأغمات وسكن مدينة فاس.

روى عن جده لأمه أبى محمّـد عبد الله بن على اللخمى، أجاز له فى صغره، وعن أبى مروان بن مسرة، وأبى عـبد الله بن الرمامة، وأخذ عن أبى بكر بن طاهر كتاب سيبويه تفهما، وكان من أهل المعرفة واليقين، أديبا شاعرا مـجيـدا، غلب عليه الأدب حـتى عـرف به وشهـر مع جودة الخط وبراعـة الأدوات.

وولى قضاء تلمسان ثم نقل إلى قضاء فاس بعد أبيه بزمن، وولى قضاء إشبيلية وغيرها ونال دنيا عريضة.

وحكى عن أبى الربيع بن سالم أنه توفى بإشبيلـية فجأة فى الخامس من ربيع الأول سنة ثلاث وست مئـة. ومولده فى حدود الثلاثين وخـمس مئة.

(١) جذوة الاقتباس ٢/٤٩٦.

وقد غلط ابن فرقد فذكر أنّه ولد سنة خمس وثلاثين وروايته عن جده أبى محمّد عبد الله بن على المتوفى سنة ثلاث وثلاثين مع صحتها، تقضى ببطلان ذلك. قال ابن فرقد: توفى عام اثنين وست مئة بإشبيلية وهو يتولى قضاءها، بعد صرف محمّد بن حوط الله وكان أبو حفص قد صرف بأبى محمّد بعد ذلك بعام أو أزيد.

ومن مشهور نظمه رحمه الله تعالى يمدح أمير المؤمنين أبا يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بن على [الموحدى][1] رحمهم الله تعالى:

الله حسبك والسبع الحواميم ... تغزو بها سبعة وهى الأقاليم[2]

سبع المثانى التى لله قمت بها ... على من نصرها نص تقديم

وأنت بالسرور السبع الطوال على ... كل الورى حاكم بالله محكوم

والدهر سبعته سبعة جعلت ... جواد مالك والمنصور مخدوم

وسبعة الشهب لم تحفل بها ثقة ... بوعد ربك هيهات التناجيم

تسمو بنفسى على السبع الشداد سمت ... فينا وثم لنا زلفى وتكريم

أنوار عدلك فى الآفاق داعية ... هل فى البسيطة ظلام ومظلوم

أعلى بك الله أعلاما هديت بها ... فأنت فيهن إكمال وتتميم

عليك أهل الهدى والحق متفق ... وحبل من فارق الإجماع مصروم

---

(١) التكملة من جذوة الاقتباس.

(٢) جذوة الاقتباس ج٢ ص ٤٩٦.

ومنها أيضًا:

فـــؤاده بضـيـــاء العلم منشـــرح ووجـهـه بجمـال النور مـوسـوم
وكَـفُّـه بطنهـا بـالخـيـر منهـمـر وظهـــرها لعـــهـــود الله ملثـــوم
العلم قـيـمـتـه والحلم شـيمـتـه طابت أرومـــتـه والنفس والخـــيم
لطالبى العلم مـا شـاءوا بخـدمتـه غنـى وعـــز وإرشـــاد وتعلـيم
سحب العلوم عليـها من سماحـته تهمى فهم فى بـحرها هم شرع هيم
العـين من نـظر والأذن فى خـبـر لا تشـبـعـان وباغى العلم منهـوم
يغـــضى أناة وحلمـــا عـــالما وله فى مـوضع الحق إقـدام وتصمـيم
تشتـد فيمن عـصى أو خان وطأته وفى الثـقـاف لذات الـزيغ تقـويم
إرادة فـوق إدراك الـعـقـول لـهـا فـحـســبـهـا منه إيمـــاء وتسليم
حتى إذا ما بدا منـها النجاح بدت كالشمس ما دونهـا فى الجو تغييم
انظر خـواتمهـا تـفـهم مـبـادئهـا بالشرح مـا ليس بالمفهـوم مفـهوم
والْحَظْ سمـاء علاها عبـرة وكفى من يسترق سمعها بالشهب مرجوم
إنَّ الخليـــفـــة ســـر الله ظاهرة آياتـه وهو عـند الله مـــــعـلوم
فـسلمـوا واخلعوا الآراء واتـبعـوا حكم الإمـام فمـا فى الدين تحكيم
الشرق والغرب من عرب ومن عجم فى كفـه عودهم بالقبض معـجوم
والبحر والبـر من سهل ومن جبل جـميـعـها بزمـام الرأى مـخطوم

ومنها أيضًا:

وكل جد مفاد من علائك من ... نسيمه نفس العلياء مشموم
للمسلمين أمير المؤمنين حمى ... يحله من صروف الدهر تحريم
الدهر فى أنفه من حكمه برة ... بها الزمان على الأبرار مخزوم
العلم والدين والدنيا وساكنها ... فى سلك رأيك يا وسطاه منظوم
جزاء سعيك عند الله مدخر ... هذا كتابك فى الأبرار مرقوم
عطفا على حسن أمداحى وإن عجزت ... إنَّ الجمال على العلات مرحوم
ما علقوا لو رأوا هذا قفا وألا ... هبى ولو جاءهم حجر وكلثوم
إذا لقال لرواية عليقمة: ... «هل ما علمت وما استودعت مكتوم»؟
يا سامعى أماديح الإمام ألا ... فاجثوا على الركب الإعظام أو قوموا
خذ كأس لفظى دهاقا من مدائحه ... فيها الحقائق لا لغو وتأثيم
ندعو له بدلا من مدحه لقصو ... رِ المدح عنه وفيه العذر معلوم
عز الإمام فلا تضرب به مثلاً ... من ذا يقاس به ومثل معدوم
أعطى الورى فضل ما أعطاه خالقه ... عليه من ربه بشرى وتسليم
صل بالصلاة عليه صدق مدحته ... ذاك الرحيق بهذا المسك مختوم

وحكى أنّه لما قال:

يا سامعى أماديح الإمام ألا ... فاجثوا . . .» البيت

قام جميع من فى المجلس وكان فيهم الشاعر المفلق أبو العباس الجراوى، فاحتاج إلى مشايعتهم لذلك، وثقل عليه لضخامته، فجعل وهو يحاول القيام يسب القاضى أبا حفص عمر، ويشير إلى أنّه انتصف منه.

وحكى أيضًا أنّه لما أنشد القاضى أبو حفص هذه القصيدة، قال فيه الجروى المذكور وكان شديد الحسد له والإذاية لعسفه، وكان له تقدم فى تلك الدولة:

نبغت عمرة بنت ابن عمر هذه فلتعجبوا إحدى العبر
قل لها عنى إذا لاقيتها قولة تترك فى الصخر أثر
هبك كالخنساء فى أشعارها أو كليلى هل تجارين الذكر

فقال أبو حفص حينئذ:

نهانى حلمى فلا أَظْلِم وعز مكانى فلا أُظْلَم
ولا بد من حاسد قلبه بنور مآثرنا مظلم
رحمت حسودى على أنّه يقاسى العذاب وما يرحم
بغانا الحسود ولسنا كما يقول ولكن كما يعلم

وكان أبو العباس الجراوى المذكور هجاء حاضر البادرة، سريع الجواب. ومن أغرب ما صدر عنه فى ذلك أنّه هجا قبيلة بنى غفجوم، استطرادا بهجو أهل فاس وقاضيهم ابن الملجوم، الكبير البيت، الشهير الأصالة فقال:

يا بن السبيل إذا نزلت بتادلا لا تنزلن على بنى غفجوم
أرض أَغَارَ بِهَا العدو فلن ترى إلاّ مجاوبة الصدى للبوم

قـوم طووا ذكر الـسمـاحـة بينهم لكـنهـم نشـــــروا لـواء اللـوم
لا يملكون إذا اسـتبـيح حريمـهم إلاّ الصـيـــاح بدعـــوة المـظلوم
لا حظ فـى أمـــوالـهم ونوالـهم للســائل العـــافى ولا المحـــروم
يا ليـــتنى من غـيـرهـم ولَوَ اننى من أرض فـاس من بنـى الملجـوم

ومن نظم القـاضى أبى حـفص المذكور، من مطلع قـصـيدة يمـدح أبا يعقوب بن عبد المؤمن، ويهنئه ببيعته الثانية:

ألا هكـذا تبـنى العـــــلا والمـآثر وتسـمو إلى الأمر الـكبير الأكـابر
نؤم لبـيعـات الرضا مطلع الهـدى وحـيث الهـدايا تعـتلى والأوامـر

ومن غزلياته قوله:

هم نظمـــوا لواحظهـا فـهـــامـوا وتشـــرب عـقل شـــاربهـــا المدام
يخـاف الناس مـقـلتـهـا سـواها أيذعـــر قلب حـــامله الحـــســـام
ســـمـا طرفى إلـيـهـــا وهو باك وتحت الشـمس ينـسكب الغـمـام
وأذكـــر قـدهـا فـأنـوح شـوقـــا على الأغـصـان تنتـدب الحـمـام
وأعـقب بينهـا فى الصـدر غـمـا إذا اغـــتـــربت ذكـاء أتـى الظلام

وقوله أيضًا رحمه الله:

مـهـا الـقـفـر لا دمـيـــة المرمـر وفى العـرب لا فى بنى الأصـفـر
بنفـسـى يعـافـيـر تلـك الخـيـام ومـسـرحـهـا فى النقـا الأعـفـر
مـلاعب يصـــبـو إليـهـــا الحكيم ويسلب فـــيـهـا فـــؤادى الجـرى

وفى الظباء بنات الأسود غيارى متى بَغَمت تزأر
فخيس الهزبر كناس الغزال به الشبل ناش مع الجؤذر
تخالسها نظرا تحته غرام به الحى لم يشعر
وباللحظ يقدح زند الهوى فطرف غرر وفؤاد برى

وكفّرها بقوله:

بقلبك يا غافلا فانظر وعينيك غمضهما تبصر
إذا أرسل الطرف هام الفؤاد وبعض المرائى عمى المبصر
وآفة قلب الفتى عينه فإن ترع قلبك لا تنظر

ومن قوله:

أغار على الصب من أنبه هو الحب من يطفه ألهبه
نأى القلب عنى وشوقى معه فلله أمرى ما أعجبه
يحن فؤادى إلى قاتلى كذلك الهوى عند من جربه
ترق شمائل من ذاقه وتلطف شَمْأَلُ من هذبه
يجود لمسخطه بالرضا ويطلب راحة من أتعبه
إذا شف قلبى غرام الهوى دعا بالنعيم لمن عذبه

وكان القاضى أبو حفص هذا كريما ممدحا، وممن أجاد فيه الشيخ الأديب الفقيه أبو العباس أحمد بن أبى الحكم يعيش بن على بن شكَيل الصدفى من أهل شريش، المتوفى سنة خمس وست مائة، ومولده سنة ثمان وسبعين وخمس مائة، وأمداحه فيه كثيرة، قدم قبلها كلاما نصه:

فيه استفرغت مجهودى، وإليه جلبت عدتى وعديدى، لأنه كان آدب أهل زمانه غير مدافع، وأولاهم بالفضل غير منازع، لتحليه بالتواضع فى الجلالة والبشاشة فى الجزالة، ووردت عليه غلاما، أحسب زندى سخاما وحدى كهاما، فتلقى نزرى بالاستكثار، ونسب بحرى إلى الاستبحار، وأولى - نضر الله وجهه - من البر لجانى والاستطراف لمذاهبى، والثناء على أنديته الآهلة، ومجالسه الحافلة، ما شهدت له بالتبريز، وخلص معه فكرى من تخوف النقدة الحسدة خلوص الإبريز، فقدحت فيه زند فكرى فورى، وفجرت فيه ينبوع شعرى فجرى، وأطلت فيه إطالة المفتن المغرب، وجعلت أمداحه نقلة المشرق والمغرب، ومع ذلك لم أنهض إلى عزه أعزه الله حيا وهابطا إلى خطة القضاء، فأتى مع سن الشيبة إلى رتبة مشيخة العلماء، فراسة منه وتوسما، واستراحا للنجابة وتوهما، إلاّ إنَّ البلد التى فيها كانت خشنة المبارك، فكنت اتقلى فيها على جمر الغضى، وأخاطبه بما لو ألقى على الحجر لا نفجر، وكانت الأناة غالبة على طباعه، وجائلة على نظره وسماعه، وكان مع ذلك مكدودا بالشفاعات، ومضيقا عليه فى الجهاد والطاعات، فخلعت عن عاتقى نجاد تلك الخطة، ودار فلك أمرى على غير تلك النقطة، وهو - عفا الله عنه - يقابل توقعى بالانبساط، وفترتى بتجديد الإنشاط، انبساطا الأمكنة والأزمنة، فقطع عليه غرضه تأخره عن الخطة، فما قطعت عنه امتداحا، ولا نسيت أيامه حنينا وارتياحا. ثم أعيد إلى الولاية، فعدت إليه، وقد أتى الهرم والسقم عليه، فعاقت منيته عن بلوغ الآمال، وسَلَبَتْنِيهِ علقا نفيسا لِمَا تخلفه الأيام والليال:

يا من لصبح الشيب كيف تنفسا ... فى لمتى فأجابه ليل الأسى

لا تحسبن سواد شعرى نعمة ... لكن كسته هموم قلبى حندسا

إلاّ يكن شـاب العـذار ولا انحنى ظهرى فـقد شـاب الفؤاد وقـوسا
إنى لأغـــضى مـقلتـى عن لائمى وأرى ابتسـامى من ضميرى عـبسا
ويلـين قـلبى لـلخلـيل مـــــودة فـإذا أحس هضـيـمة يـوما قـسـا
وأجيل لحظى فى المـنى شغفـا بها وأجل شوقى عن لـعل وعن عسى
مالـى أرى الهالات عدن هـوادجا ولهـذه الأضـلاع صـارت مكنسـا
طويت على بيض الدمى فتكانست فـيـهـا ظبـاء يرتـعـين الأنفـسـا
فهى الـدرارى فى الهواجر خـنسا وهى الجـوارى فى الهـوادج كنسـا
يطرقـن أمـــواه الفـــلاة تـعـــربا ويردن نيـــران الضلوع تمـجـســا
فـيـهن جـائلة الـوشـاح تنفـست فـزها النسـيم أريجـهـا فـتنفـسـا
زارت كـمـا زار الخـيـال تسـتـرا وعطت كمـا يعطو الغزال توجـسا
حذرت مـن الرقبـاء حول طرافـها فـأتت تجر على الـتراب السندسـا
ملت بطاريـق الرجـال وشـاقـهـا صـعلوك حى ليس يبـقى منفـسـا
زعـــمت فـــتـــاة الحى أنـى مملق أرأيت إمـلاقى لمجـدى مـركـسـا
باتت تهـيـجهـا وسـاوس حليهـا حـتى إذا الصـبح المـنيـر تنفـسـا
بكـرت تلومك فـى الندى كنـدية صـدفيـة تنمى السكـون وأشرسـا
يا بنت عـمى هل سـمعت بماجـد يبكيـن أوتى الذم أطعم أوكـــسـا
لا تحـسـبى أكل المـرار عـمـيـدنا غـــرثا ولـكن عـــزة وتغـطرســا
أذهلت عن عقـبى الندى إنَّ الندى ليـــرد وحـشـى المنى مـــتـأنســا

عـقـــر المطيـــة للعـذارى ربـهـا ... فـأبيح ثغـرا مـن عنيـزة أومـسـا
لم ينس مـــيـــتـا بـالكُلاب وربما ... قـد ضاق ذرعـا أن يفوه فـيلبسـا
ونسـيت حجـرا يوم هيج بالعصـا ... أسـدا ومن هاج الأسـود تفـرسـا
هبطت كـــواهل ملكه من كـــاهل ... أبدا أصـابـت منه يومـا أنحـــسـا
فلئن أبـيـرت مـــالك أو كـــاهل ... فلقـد أبارت منه قـرمـا أحمـسـا
قـد كان مـلك فى كنودك والندى ... فى ظبـيـــة فـتـفـردا وتقـــيـسـا
كملوك جـيش كلما وطئـوا الثرى ... وأظن أنَّ لهـا الثـرى والأشمـسـا
ولطودها السلمى قـاضيـها الرضـا ... كـرم وجـود ينطـقـان الأخـرسـا
شـهـــدت له أصـحـابـه وعـداته ... حـتى الغمـام إذا همى وتبـجسـا
قـسـمـا لأندى بـالندى واعـتـاده ... فـينا فـسار مـع الركاب وعـرسـا
وكـسا الورى العـدل المبين وقـبله ... سلبـوا بجـور ولاتهم تلك الكسـا
وأعـــد أقـدار الأمـــور بحـزمـــه ... ورمى به غرض الخطوب فـقرطسا
واتتـــه للبـيت الـرفـيع عـــمـاده ... عـمـد له مـجـدًا وعـزًّا أقـعسـا
قـــالت بنو ثعـل: نفس مكارمًـــا ... تعزى لحاتمها، فـقلت: وما عسى؟
جـــيـئـــوا بواحـد لحـــاتم طىء ... من هـذه وعلى ألا أنـفـــســـا
أو سـائلونى فى الأنام سـوى أبى ... حفـص فهل تجدون عـنه معـدسا
أو فاحـملوا بعض الذى هو حامل ... ليـــردكم منـه يلملم قـــد رســا
النـاس أشـــبـــاه ولـكن بينـهم ... فى الفـضل ما بين الذؤابة والنسـا

أحسبتم كل امرئ غمر الندى ... ما كل بيت بالشآم المقدسا
يا خجلة القمر المنير وقد رأى ... عُمَرا بأنواع الجلالة ملبسا
لو يستطيع لجاء مقتبسا لها ... من أفقه وإذا لصادف مقبسا
خاب امرؤ يرجو نداه غضاضة ... إلاّ الكفور فانه قد أبلسا
طيبت أفواه الرواة بمدحه ... فكأن عطارًا يضمخ معرسا
وعلوت قدر الناطقين بشكره ... ولئن تمادى فى نداه لأخرسا
يا واحد العرب الذى لو صورت ... طرفا عتيقا كان منه القونسا
إنى دعوتك للأمانى الغُرِّ فى ... ظلم الزمان السوء أحكى يونسا
إن يلقم نون الحوادث مطلبى ... فامده له يقطين جودك ملبسا
أنت الرواء إذا تعذر مورد ... والماء إن كدر الرجاء فأيأسا
والعجز أن يرجى سواك وإنّما ... أخشى نبات الروضة المتخلسا
فلأنت أنفس عقدة مذخورةٍ ... لم لا أصون عن ابتذالى الأنفسا

انتهى.

قال صاحب الإشادة العَزَفِىّ المذكور:

القاضى أبو حفص من مفاخر المغرب، لم يذكره أحد من لقيه وتعرض لذكره، إلاّ أطنب فى الثناء عليه، ووصفه بالعلم والفضل، والعدل فى القضاء، مع براعة النظم والنثر؛ ويكفى من ذلك ثناء المحدث أبى عبد الله محمّد بن عبد الرحمن التجيبى، نزيل تلمسان عليه، وقد ذكره فى شيوخه فقال: ونقلته من خط الشيخ الفقيه الأجل، الكاتب المجيد، الحسيب الأديب،

الأرفع الأكمل، القاضى المسدد، الموفق الأعدل، أبى حـفص. ثم قال: لقيته بتلمسان حـرسها الله، قدمها علينا قـاضيا، فشمل أهل البلد كلهم أجـمعين بفضلـه وأدبه وعدله، وإجلاله وإكـباره وحـسن خلقه، لا سـيما مـع طائفة الطلب، وأهل الأدب والحسب، فـجزاه الله عن نفسه وعنهم أفـضل الجزاء، فلا يـعرف الفضـل إلاّ فاضل، ولا يكرم الناس إلاّ الكريم، وكل يمـيل إلى جنسه، وما هو من طبعه، كما قال بعض الأدباء، وأجاد فى مقالته، وأحسن القول: «ما عبر الإنسان عن فضله، بمثل ميله إلى أهله».

وذلك منظوم فى قول الشاعر:

وما عـبر الإنسان عن فضل نفـسه بمثل اعتقـاد الفضل فى كل فاضل
وإنَّ أخس النقص إنَّ بـنفى الفـتى قذى النقص عنه بانتقاص الأفاضل

وامتثل رضـى الله عنه قول الآخر: «اصحـبوا الناس صحبـة إن عشتم معـها حَنَوْا عليكم، وإن مـتم بكوا عليكم». واستـعمل مـا قاله الشـاعر فى كلماته، ونظمه فى قافيته:

وإنّمـــا المرء حـــديث بعـــده فكن حـــديثـا حـسنا لمن وعى

ففعل والله ذلك أيام كونه بتلمسان، واستعـمله بطبعه وطبيعته، وخلقه وخليقته، إلى أن نقلـه الخليفة إلى قضاء فاس، فلا تسـأل عما أصاب الناس والإخوان من فقده، وفقد أدبه وعلمه، فـذكر الطيب، والثناء الجميل، باقيان عليه إلى الآن بتلمسان، وهو مستقر فى غيرها من الأوطان.

وكان أبو حـفص رحمه الله حسن الخَلْقِ والخُلقِ، مليح الخط، فـصيح الخطابة والكتـابة، وكنت إذا رأيتـه تمثلت عند رؤيته والـنظر إليه، بما أنشـدنا

شيخنا الحافظ أبو طاهر السلفى الأصبهانى، رضى الله عنه، فى مدح هادى ابن إسماعيل:

لهادى بن إسماعيل خلات أربع بهن غدا مستوجبا للإمامة

خاطب ابن عبادة، وخط ابن مقلة وخلق ابن يعقوب، وخلق ابن مامة

وأنشدته رضى الله عنه البيتين، فاستحسنهما وشكر لى ذلك، وكان لى من بره وتأنيسه وبشره حظ جزيل، وقسم كبير، ورغب إلى أن أكتب له بخطى بعض ما عندى من أخبار الصالحين، وأئمة المتقين، وأولياء الله المطيعين، فكتبت له من الأحاديث الوعظية العلمية، والأشعار الحكمية، ما أمكننى، فسر بذلك، وشكر عليه؛ ولمّا أتى مدينة فاس، صار يُرِى ذلك أَوِدّاءه وأحبابه، ويشكر عليه، ويثنى خيرًا، وبارك الله تعالى فيه. ثم قدر الله تعالى بوصولى بعد انفصاله عن مدينة فاس، وتوليته لقضاء أغمات، إلى حضرة مراكش، حرسها الله تعالى، وكان بالحضرة المذكورة، فسمع بذلك، وكنت نزلت بفندق من فنادقها، يقال له فندق السكر، فوصل إليه، واجتمع بى، فدعوت له وشكرت، ثم أولانى من بره وتأنيسه ما عهدت قبل منه، وزاد عليه، ورغب فى الوصول إليه إلى أغمات، فوصلت إليه بعد ذلك، فرحب وسهل وأنزل، وأثنى على عند الأصحاب والإخوان خيرا، وقال ما يصدر عن مثله، فالعنصر الطيب لا يخرج منه إلاّ الطيب، وكنت معه فى داره فى خصب وسعة، وطلاقة وجه، وحسن خلق، وطيب حديث، وكريم مشاهدة ومناشدة، لنفسه ولغيره.

انتهى ما قصدت جلبه من كلام صاحب الإشادة، المنقول عن التجيبى نزيل التلمسان، رحم الله الجميع.

ولنجعل آخر نظم القاضى أبى حفص رحمه الله قوله:

العلم يكسو الحلل الفاخرهْ والعلم يحيى الأعظم الناخرهْ[1]

كم ذنب أصبح رأسا به ومذنب أبحره زاخرهْ

ما شرف النسبة إلاّ التقى أين تهيم الأنفس الفاخرهْ

من يطلب العز بغير التقى ترع عنه نفسه داخرهْ

أعرض عن الدنيا تكن سيدا بل ملكا فيها وفى الآخرهْ

وبيت العزفيّين، الذين منهم صاحب الشهادة بسبتة أعادها الله مشهور، وكانت لهم الرياسة بها مدة، ثم أعقب الدهر جدتها بالبلى، ثم كل شىء فان ولا يبقى إلاّ الواحد الذى ليس معه فى ملكه ثان.

وأبو القاسم منهم هو الذى تأمر ورأس سبتة، وهو أبو القاسم محمّد ابن القاضى المحدث أبى العباس أحمد بن محمّد بن الحسين، بن الفقيه الإمام على المعاصر لابن أبى زيد بن محمّد بن سليمان بن محمّد، الشهير بابن عزفة اللخمى. ينتهى نسبهم إلى قابوس بن النعمان بن المنذر، وكان قيامه بسبتة ليلة سبع وعشرين من رمضان، من عام سبعة وأربعين وست مئة، فى دولة المرتضى الخليفة بمراكش، وقَتَل والى سبتة أبا عثمان بن خالد تلك الليلة، وملك طنجة، ودخل أصيلا، وهدم سورها، وتوفى بسبتة يوم الخميس الثالث عشر من ذى الحجة من عام سبعة وسبعين وست مئة وله سبعون سنة، وكانت دولته ثلاثين سنة وشهرين وستة عشر يومًا، من

(١) جذوة الاقتباس ٢/٤٩٨.

شَهْدة[1] بين كتفيه، مرض بها واحدًا وعشرين يوما، وكان مولده بسبتة فى منتصف شوال عام سبعة وست مئة.

وهو الذى أكمل «الدر المنظم، فى مولد النبى المعظم». من تأليف أبيه أبى العباس رحمه الله.

ورأيت على نسخة كتبت فى حياته أول الكتاب المذكور ما نصه:

قال سالك سنن السنة، القائم من أعمال البر بما يضيق عنه وسع المنة المعتصم بجبل الله القوى المتين، المعتمد على لطفه الشامل وفضله العميم المبين، الشيخ الفقيه الأجل، العلم الأكمل، أبو القاسم بن الشيخ الفقيه الإمام، العارف العالم، علم العلماء العاملين المتقنين، ونخبة الفضلاء الصالحين المتقين، أبى العباس أحمد بن الشيخ الفقيه القاضى العالم المحدث، أبى عبد الله اللخمى، ثم العزفى، من أهل سبتة حرسها الله وأجزل قسمه من عفوه ورضاه، وأنجح عمله وقوله وقصده، وجعل فى ذاته وسبيل مرضاته صدوره وورده. انتهى.

وفى موضع آخر من هذه النسخة ما نصه: السفر الأول من كتاب «الدر المنظم فى مولد النبى المعظم، ﷺ، وشرف وكرم».

لمّا شرع فى تأليفهن ومات ولم يكمله الشيخ الفقيه الصالح، علم العلماء، ونخبة الصالحين الفضلاء، أبو العباس أحمد، بن الشيخ الإمام الفقيه، الصالح القاضى، العالم المحدث، المقدس المرحوم، أبى عبد الله اللخمى، ثم العزفى السبتى، رحمه الله، ورضى عنه، ونضر وجهه، وأجزل ثوابه، وأكمل بعده، وأوضح فيه قصده، ابنه الشيخ الفقيه الأفضل، العلم الأوحد، السنى السبتى، المبارك الأكمل، أبو القاسم، أدام الله عافيته ووفقه،

(١) فى هامش المطبوع: «الشهدة بلسان المغاربة: دمل كبير، ولعله ما يسمى الآن بمصر بجمرة السكر.

وشرح صدره، وختم بالكتاب والسنة ديوان عمله الصالح وعمره، يذكر فيه بعض ما خص الله تعالى به نبيه ﷺ وفضله على كل من تأخر من خلقه أو تقدم، وما امتن به عليه وعلى أمته، فى أن جعله أفضل الأنبياء، وجعلهم أفضل الأمم، من بين ولد آدم، ليتخذوا مولده الكريم موسمًا، يتركون به ما كانوا يقيمونه من أعياد النصارى وعوائدهم، التى يجب لمغانيها أن تعطل، ولمبانيها أن تهدم. انتهى.

وكان الرئيس أبو القاسم المذكور كتب خطه بالإجازة فى هذا الكتاب للخطيب أبى على، بن الخطيب أبى فارس بن غالب الجمحى، مع جماعة من أهل سبتة وأعيانها، حين قرءوه عليه بالجامع الأعظم من سبتة، فى شهر ربيع الثانى، من عام سبعة وخمسين وست مئة، قائلا:

أجزت له بحق روايتى لما فيه عن أبى، ومشاركتى له فى تأليفه، على حكم الإجازة وشرطها، وصحة الرواية، عاشر الربيع المذكور. انتهى. وبعضه بالمعنى.

ونسبتهم إلى لخم لا مدفع فيها عند الثقات، وبذلك وصفهم الأكابر، غير أنَّ ابن الخطيب فى الإحاطة، نقل عن «الكتاب المؤتمن، فى أنباء أبناء الزمن» ما نصه: وتزعم بعض أهل سبتة أنَّ أصلهم من مجكسة من البربر، فيقولون: ما للخم ومجكسة؟ وهذا موكول إلى قائله، إذ لا نعلم حقيقة الأمر فيه.

نعم، الإنصاف فى المسألة أنَّ كل من عرف بالأصالة فى المغرب الأقصى، ولم يعلم لآبائه قدوم من المشرق، حيث جراثيم العرب، ولا قدوم من الأندلس، حيث أبناء العرب، وانتسب مع ذلك إلى قبيلة [من العرب][1]،

(١) الزيادة يقتضيها السياق.

فلا بد له من الاستظهار على ذلك، وإلاّ كان ما أتى به مظنة لأحد أمرين: أما لكون سلفه من الموالى، فانتسبوا إلى ساداتهم، إذ يجوز لمن كان مولى عربى أن ينتسب إلى قبيلة سيده؛ وإما للكذب. وهذا أعدل ما يقال. انتهى.

ونقله فى الإحاطة فى ترجمة الفقيه المشارك فى الطلب والأدب أبى إسحاق إبراهيم بن أحمد بن أبى عزفة اللخمى[1]. وإلى الله ترجع الأمور.

وكان الرئيس الفقيه أبو القاسم العزفى المذكور فقيها أصوليا، نحويا لغويا محدثا، عارفا بالرواية، شاعرا مجيدا.

فمن نظمه فى آل بيت المصطفى ﷺ:

ذرية المصطفى إنى أحبكم ... وحبكم واجب فى الدين مفترض

فليس يبغضكم لا كان باغضكم ... إلاّ امرؤ مارق فى قلبه مرض

وحسبكم شرفا فى الدهر أنكم ... خير البرية هذا ليس يعترض

ولست أطلب فى حبى لكم ثمنا ... إلاّ الشفاعة فهى السؤل والغرض

ولّما توفى رحمه الله تعالى قام بعده بالأمر ابنه أبو حاتم أحمد ثم خلع وتولى أخوه أبو طالب عبد الله فى سنة ثمان وسبعين وست مئة وخلع ليلة الأربعاء السابع والعشرين من شوال سنة خمس وسبع مئة فكانت دولته سبعا وعشرين سنة، وتوفى بفاس مخلوعا عام ثلاثة عشر وسبع مئة وله خمس وسبعون سنة. والذى خلعه الأمير فرج بن إسماعيل بن يوسف بن الأحمر دخل عليه سبتة عنوة فى الليلة المذكورة وقبض عليه.

ثم تولاها الأمير يحيى بن الأمير أبى طالب ابن أبى القاسم ويكنى أبا عمر وبويع سبتة عام عشرة وسبع مئة وخلع فى سنة إحدى عشرة وسبع مئة

(١) بحثت عن هذه الترجمة فى الإحاطة (ط. الخانجى) فلم أجد بها ترجمة لأبى إسحاق إبراهيم العزفى.

وكانت دولتـه الأولى هذه سنة وستّة أشهـر. وبويع ثانيا بسبـتة فى سنة أربع عشرة وسبع مـئة، وتوفى بها فى ظهر يوم السبت السادس لشـعبان سنة تسع عشـرة وسبع مئة، وكـانت ولادته بها فى رمضـان سنة سبع وسبـعين وست مئة. وكان فقيها فاضلا، جمـيل الوجه، شجاعا بطلا، عافا بالأصول والفقه والمنطق والعربيـة واللغة والحديث، وقـيل: إنه أول من ركب بالرمح والسيف من بنى العزفى وجند الجنود.

ثم تولى بعده ابنه أبو القاسم محمّد بن يحيى وبويع بعد أبيه فى شعبان من عام تسـعة عشـر وسبع مئـة، وخلع فى صفر سنة عـشرين وسبع مـئة، فكانت دولته ستّة أشهر. وتوفى بفـاس وهو كاتب الحضرة المرينية ليلة السبت حادى عشر صفـر عام ثمانية وستين وسبع مئـة وله ثمان وستون سنة، وولد بسبتة فى شوال عام تسعة وتسعين وست مـئة. وكان فقيها شاعرا مكثرا مليح الفكاهات وشاحا، وقد بز أهل زمانه فى الموشحات، وقد حكى عنه أنّه أراق الدواة فى فى محفل جليل فقال بديهة:

ألا يا كرام الناس غضـوا جفونكم فـإنى من الفـعل القـبـيح مـريب
هرقت دواة وهى كـالكـأس بينكم وللأرض من كأس الكـرام نصيب

وكان مولعا بنظمه بالتورية.

وعزم السلطان أبو عنان لما أخذ قسطنطِينة على استـعماله بها فبكى لبعد الشقـة عن ولده وبلده فتركـه. وهو آخر المذكوريـن من هذا البيت رحم الله الجميع.

وصاحب الإشادة المتقدم الذكر، هو عم أبى القاسم محمّد بن يحيى هذا، لأنَّ صاحب الإشادة كما أسلفنا، هو عبد الرحمن بن أبى طالب عبد الله بن محمّد بن أحمد بن محمّد بن أحمد وهذا محمّد بن يحيى بن أبى طالب عبد الله بن محمّد بن أحمد.

وقد عرف فى إشادته بابن خبازة ورأيت أن أذكر بعض ذلك فنقول: هو أبو عمرو ميمون بن على بن عبد الخالق الخطابى[1]، نسبة إلى قبيل من صنهاجة، الذى بقطر فاس، ويعرف بابن خبازة نسبة إلى خاله الشاعر المشهور بابن خبازة. عَرَّف به أبو عبد الملك المراكشى فقال: كان بارع الخط، وكان من أكبر أعاجيب الدهر فى سرعة البديهة، ناظما أو ناثرا، مع الإجادة التى لا تجارى والتفنن فى أساليب الكلام معربه وهزله، على اختلاف اللغات. تطور كثيرا وتصوف، ونسك ووعظ، وكان فى أخر عمره جانحا إلى امتداح ملوك عصره فكان يأتى فى ذلك بما لم يسمع بمثله، ولا يطمع فى لحاقه، بسرعة ارتجال، وحسن افتنان، وسرعة امتثال، وله فى ذلك أخبار غريبة عريقة. وولى بأَخَرة حسبة الطعام بمراكش.

وذكر أبو عبد الله بن الأبار فى التحفة فيمن لم يجد له غير الهجاء وظلمه، كما أثبت أبو بكر بن رفاعة الشريشى، وقد شهد فيه فى كتاب التكملة له بما يخالف ذلك وكناه أبا سعيد، وذكر أنه لقيه بإشبيلية وسمع منه بعض كلام فى غير ذلك بمالقة، وتوفى برباط الفتح فى أول سنة سبع وثلاثين وست مئة.

وأنشد له من قصيدة:

---

(١) جذوة الاقتباس، ص ٣٤٨.

وجـــد الـنبـــوة حـلة مطـوية لا يستطـيع الخلق نسج مثـالها[1]

فـأسر حـسـوا فى ارتغـاء يبتـغى بمحـــاله نســـجـا عـلى منوالهـــا

وذكر أنّه قالها بمراكش. انتهى.

قال صاحب الإشادة: قال هذه القصيدة فى المأمون بن المنصور حين تبرأ من إمامـهم المهدى، وأبدى مـساويه. وأسـقط اسمه من الخطبـة وهو المعنى بقوله: وجد النبوة حلة مطوية.

وقد كتب عـن أبى عمرو هذا كثيـرا من شعره أبو عمـرو بن سالم بن صالح النهـروانى المالقى الأديب المقيـد الضابط وتاريخ إجـازته إياه سنة أربع وست مئة. ومات ابن سالم قبله بست عشرة سنة.

ومن شعـره أى أبى عمرو المذكـور يرثى أبا محمّـد عبد الله أحـمد بن محمّد بن عبد الملك بن الحـافظ أبى بكر بن الجد، ويعزى أباه عنه وهو يومئذ وزير إشبيلية وعظيمها، وكانت حينئذ حاضرة الأندلس:

أرجة الصعق يوم النفخ فى الصور أم دكة الطود يوم الصعق فى الطور[2]

أم هدت الأرض إظهـارا لما زجرت به الخليـفـــة من إيقـاع مـخـدوع

أم الكواكب فى آفـاقـها انـتثـرت وباتت الشـــمس فى طـى وتكوير

مـا للنهـار تعـرى من ثيـاب سنى وأشـبـه الليـل فى أثواب ديجـور

قـد كـان للصـبـح طرف زانه بلق فـقـــسم الخلق بين الـدجن والنور

(١) جذوة الاقتباس، ص ٣٤٨.

(٢) جذوة الاقتباس، ص ٣٥٤.

فـمـا الملم الذى غـشى بدهمـتـه ... أديمـــه عنبـر من بـعـد كـــافـور

أصح لتـســـمع من أنبـائهـــا نبـأ ... يطوى من الإنس فيـها كل منشور

وانظر فإن بنـى عدنان ما حـشروا ... إلاّ لرزء عظيم الـقـدر مـشـهـور

وافى مع العيد لا عادت مـضاضته ... فـشاب سلسـاله الأصـفى بتكدير

واعتـام دارا لها فى السبق جمـهرة ... من المفـاخـر أزرت بـالجـمـاهيـر

رمى قريشـا فأصمى سـهم حادثه ... أبناء فـــهـــر بتـفـــريق المقـــادير

فحانه الجد فى ابن الجد حين قضى ... وأثر الخطب فـيـــهـا أى تأثيـــر

لله والمجـــد مـــا أبقـــاه من أثر ... أخرى الليـالى بطيب الذكـر مأثور

نوارة عندمـــا راقت بدوحـتـــهـا ... أهوت إلى التـرب من بين النواوير

جار الـذبول عليهـا بعدمـا ملأت ... مـعاطس الدهر من طيب وتعطيـر

وســيف بأس الخطب أغـــمـــده ... صرف الحـوادث فيهـا بعد تكسـير

قضى فـوافق شهر الصوم مـرتحلا ... ووافق الشـهر فى فـضل وتطهيـر

واخـتـاره خاطـب الخطب الملم به ... للصهر كفئا فـأمضى العقد للحور

فـسـار للحـين مـسـرورا وخلفنا ... للحـزن فاعـجب لمحزون بمسـرور

نادته أنجـشـــة الأحـزان يوم حـدا ... أظعـــان قلبى رفـــقـا بالقـــوارير

فالوجد والدمع من الحزن قـد اقتسما ... قلبـى وجـــفنى بمنظـوم ومنثـــور

فالقلب بالغيظ فى تصعيـد مستعر ... والجفن بالفيض فى تصويب ممطور

وسـاق الخطب يشدو الحـاملين به ... يسوقهـم سوق حادى العير لـلعير

وللملائك فى آفاقها زجل ... قد شيعته بتهليل وتكبير
أثنى المصاب على شيخ الجزيرة فى ... عقد وحل وتقديم وتأخير

وهى طويلة جدا منها:

مقدمات الليالى طالما فضحت ... نتائج الغدر منها كل مغرور
جمع السلامة معدوم الوجود بها ... وكم بها للردى من جمع تكسير
وعامل الموت قَدْ أحصى مهندسه ... منازل العمر عَدًّا دون تكسير
والأرض طرس وهذا الخلق أحرفه ... والحرف ما بين ممحو ومبتور
والدهر يعرب بالأفعال يظهرها ... طورا ويعجم منها كل مسطور
وإنما الخلق أسماء تعاورها ... إعرابه بين مرفوع ومجرور
وكلهم فى مدى الأعمار تحسبهم ... كحالها بين ممدود ومقصور
والموت مثل عروضى يقطع من ... أبياتهم كل موزون ومكسور
يا من يؤمل أن يبقى وقد نفضت ... أيدى المقادير من إبرام تقدير
هذى الحقيقة لا ما حدثتك به ... آمال نفسك عن دنياك من زور
لا تخدعنك الليالى إن فتنتها ... كادت فكادت ترينا كل محذور
كم بادرت بعبوس الخطب من ملك ... قد بات بالبشر وضاح الأسارير
سائل كسرى مليك الفرس هل تركت ... له المنايا جناحا غير مكسور
وانزلا بصنعاء فى قصر ابن ذى يزن ... تلمم بقصر على الأغيار مقصور
واعبر على حيرة النعمان معتبرًا ... تعبر بأطلال نعمى ذات تغيير

وأين من كان سجن الجن فى يده والإنس والجن فى قهر وتسخير
وأين مخترق الدنيا بعزمته يطوى البلاد بها طى الطوامير
بادروا فليس بها باد يحس به منهم وأفناهم ريب الدهارير
هو القضاء أبا بكر أصبت به فاصبر وسلم تسليم مأجور
والله يحرس دنياكم ويدفع عن سامى معاليك أنواع المحاذير

وحكى أنَّ المعتصم يحيى بن الناصر بن المنصور الموحدى، ضرب بظاهر مراكش قبة حمراء، فبادر إليها العرب والنصارى من عسكر عمه المأمون؛ فقطعوا أطنابها، فسقطت، فقال فى ذلك أبو عَمْرو هذا من قصيدة:

انظر إلى القبة الحمراء ساقطة لما رأت مضر الحمراء عن كثب
من كان أولى بها إن كنت ذا بصر لعجم أو معدن العليا من العرب
وإنما سجدت لما سمت وغدت فوق الضلال وكانت أعجب العجب

ومن رائق نظم أبى عمرو قوله:

هب النسيم ضحى ففاح المندل وتأرجت منه الصبا والشمأل[1]
أسرى عليلا فاستحث إلى الصبا صبا بأنفاس الصبا يتعلل
يهوى العذير وساكنيه ومن له لو كان يدنو منه ذاك المنزل
ما شام برقا بالفضا إلاّ انبرى شوقا على جمر الغضى يتململ
والبرق فى نقع السحائب سيفه سيف الكمى إذا يكر ويحمل

(١) جذوة الاقتباس، ص ٣٥٧.

فكأن ذاك البرق واش قد مشى بنميمة والرعد لاح يعذل
وأنا الفداء لجيرة نزلوا الحمى وحمى القلوب هو الحمى والمنزل
وتحملوا يوم الفراق وإنما بقلوبنا يوم الفراق تحملوا
قبسوا ومن قلب المعذب موقد وردوا ومن جفن المعنى منهل
ما ضرهم إذ أعرضوا لو عرضوا للوصل أو ذكروا العهود فأقبلوا
حملوا الجمال على الجمال كأنما أفلاكها منها الأهلة تكمل
أبدت لنا حلى الطلى وتبسمت زهرا فراق مقلد ومقبل
ومن العجائب أن أهيم بجنة حلت بقلبى هو نار تشعل
ويهان مرسل ناظرى فى حبها ومن التناصف أن يعز المرسل

ومن شعره رحمه الله تعالى هذه القصيدة الفريدة التى مدح بها المصطفى ﷺ، وأشار إلى جملة من مناقبه الربانية، ومآثره العرفانية، وآياته الباهرة ومعجزات الظاهرة ﷺ، وشرف وكرم، ومجد وعظم، وبارك وأنعم، وتحنن وترحم، وهى قوله[1]:

حقيق علينا أن نجيب المعاليا لنفنى فى مدح الحبيب المعانيا
ونجمع أشتات الأعاريض حسبة ونحشد فى ذات الإله القوافيا
ونقتاد للأشعار كل كتيبة لنصر الهدى والدين تردى الأعاديا
فألسن أرباب البيان صوارم مضاربها تنسى السيوف المواضيا
لنطلع من أمداح أحمد أنجما تلوح فتجلو من سناه الدياجيا

(١) جذوة الاقتباس، ص ٣٤٨.

كـواكب إيمـان تنيـر فـيـهـتـدى بأضـوائهـا من بـات للحق سـاريا
سـهوت بمدح الخلـق دهرى فهـذه سجودى لجبرى كل ما قلت ساهيا
فـــلا مـــدح إلاّ للـذى بمديحـــه تطيع إذا مـا كنت بالمدح عـاصيـا
رسـول براه الله من صـــفـو نوره وألبـسـه بردا مـن النور ضـافـيـا
ومـا زال ذاك النور من عـهـد آدم ينيـر به الله الـعـصـور الخـواليـا
ثوى فى ظهـور الطيـبـين يصـونه وديعـه سر صـار بالبـعث فـاشيـا
وخص بطون الـطيـبـات بحـــمله ليـحـمل فـرعا بـالسيـادة زاكـيـا
بـه وزن الله الخـــــلائق كـلهـم فـألقاه فـيـهم راجح الوزن وافيـا
وأنقـــــذنا من نـاره بظـهـــوره ولولاه كـان الكل بالشـرك صاليـا
وآدم لما خـــاف يجـــزى بذنبـــه توسل بـالمخـتـــار لله داعـــيـــا
فـــتـــاب عليـــه الله لما دعـــا به وأدناه منه بـعـد مـــا كـان نائيـــا
وقد يهجر المحبوب فى حالة الرضا ويأبى الهـوى ألا يصـدق واشـيـا
وعـين الرضا عن كل عـيب كليلة ولكن عيـن السخط تبدى المـساويا
وأدرك نوحـا فى السـفـينة رعـيـه فخلـصه الله كان فى المـوج جاريا
ومـا زال ســام وهو ثاو بظـهـره على أخـويه بالفـضـائل سـاميـا
فـخـصص حـتى بالمكان كـرامـة وأسكن فى أعلى الـبلاد مـراقـيـا
وأنزل حـام بـالجنوب مـجـانيـا ويافث فى أقـصى الشمـال مؤازيا
وأنزل ســام للفـــضـيلة وحـــده بأوسط مـعـمور الـبلاد الأعـاليـا

وبادر جبريل الخليل لأجله ... ليحميه إذ أبصر الجمر حاميا

ويخبر فى وقت البلاء يقينه ... فصادف ورد الخلة العذب صافيا

فقال له: هل تسألنى كفاية ... فجاوبه حسبى بربى كافيا

فكانت عيه النار بردا كما أتى ... به وسلاما وهى نار كما هيا

وجازاه فى الإسراء عنها نبينا ... وألهمنا فوق السموات ساريا

فلما انتهى جبريل عند مقامه ... بحيث تلقى الأمر ألا تماديا

أشار على المختار أن سر فإنه ... مقامى لا أعدوه ما دمت باقيا

فناداه يا جبريل: هل لك حاجة ... إلى الله فأسألها لتعطى الأمانيا

فقال له: سله لأبسط رغبة ... على النار منى للعصاة جناحيا

فدلى فى أفق المهابة رفرف ... وزج براق العز فى النور راقيا

ومن أجله خص الذبيح فداؤه ... وفد ظهره المختار أصبح ثاويا

فداه بذبح عظم الله شأنه ... لأن كان دهرا فى الفيراديس راعيا

وثنى بعيد الله حامل فضله ... فكان بذاك الفرع للأصل راقيا

لذلك ما قال الرسول منبها: ... أنا ابن ذبيحيها يعد المعاليا

وعف أبوه إذ دعته لنفسها ... فتاة رأت نور النبوة ضاحيا

مضى ولذاك النور بين جبينه ... شعاع السنى يعشى العيون الروانيا

فأعرض عنه ثم سار لشأنه ... وكان له الرحمن بالحفظ واقيا

وعاد وقد أدى أمانة ربه ... لأمته وعدا من الله ماضيا

ومـر علـى حى الفـتـــاة فنوديت ... هلمى تصـادف لذعـة الحب راقيـا
فـقـالت لهم قـد كـان ذلك مـرة ... لأمـر عـصـينا فـى هواه النواهيـا
أردت بأن أعطى سناه وقـد قـضى ... لغـيرى به من كـان بالحق قـاضيـا
وكم طالب مـــا لا ينال وقـــاعـد ... سـعـادته تبـدى لـه السـؤل دانيـا
وكم شـــاهدت من آية أمـــه به ... يصـيـر بهـا جيـد الديانة حـاليـا
رأت فى مـعـاليـه مـرائى جـمـة ... فـــصـــدقـت الآثار منه المـرائيـــا
وقيـل لها بشـراك فزت بخيـر من ... يرى فوق أكـناف البسـيطة ماشـيا
وحفت به الأملاك فى حين وضعه ... بليلـة إفـضـــال تزين اللـيـاليـــا
وبشـــر رضـوان الجـنان بخلقـــه ... فـفـتح جنات النـعـيم الثـمـانيـا
ونادى منادى العـز طوفوا بأحـمد ... جهـات الدنا طرا وعموا النواحـيا
بدا واضـعا كـفيـه بالأرض رافعـا ... بعيـنيه نحو الأفـق بالطرف سامـيا
وأعـول إبليس اللعـين وقـال قـد ... يئسـت وَقِدْمًا كنـت للكفر راجـيا
وسـار إلى صنعـاء شـيـبـة جـده ... فـحل مـحـلا للوفـادة قـاضـيـا
وحـيا بـغمـدان ابن ذى يزن بهـا ... وهنـأه بالملـك إذ عـــاد واليـــا
فـــقـربه دون الوفـــود وخـصـــه ... ليـسمع قـولا فى الرسالة شـافيـا
وقـــال له إنـا وجـــدنا بكتـــبنا ... نبـيـا يرى من نـحـو أرضك آتيـا
يمـــوت أبـوه ثم تهـلك أمـــه ... ويكفله بعـض العمـومـة حـانيـا
وقـال له والبيت ذو الحـجب زاره ... وفـود الورى جابوا إليـه الفيـافيـا

لأنت على ما يقتضى الوعد جده فشيد به للمجد ما كنت بانيا

وقال له احفظ ما أقول فإنه سيملك أرضى إذ رأى الملك واهيا

وقول هرقل إذ أظل زمانه فقال أرى ملك الختان مدانيا

وطالع فيه مصحف الأفق ناظرا كما زعمو يستشير الدراريا

فلم تنقض الأيام حتى أتى له كتاب رسول الله للحق داعيا

فباحث عن أهل مكة سائلا وكان بأوصاف النبيين داريا

ولبى الهدى لما دعاه جماله وهام قليلا ثم ألفى ساليا

وورد الرضا لا يهتدى لسبيله فيروى به من كان فى الله صاديا

وإيوان كسرى ارتج ليلة وضعه وبات عليه قصره متداعيا

وزاد برؤيا الموبذان ارتياعه فأذهله أن يستبين المساعيا

وفسرها شق وشق غباره سطيح بسجع قصَّ ما كان رائيا

فنصا على إرسال أحمد مثبتا لدين الهدى بالرغم للكفر ماحيا

وأخمدت النيران نيران فارس وكانت تلظى ألف عام تواليا

وحمل ذاك الحلم حجر حليمة لترضعه در الفضائل صافيا

أبى حمله النسوان لليُتْم وانبرت له فرأت من حينا الرزق ناميا

فحازت به السبق الأتان كرامة وأخصب مرعاها ففاق المراعيا

وشارفها إذ لا تبض بقطرة فصارت به ثجا تروى الصواديا

وفى حيّها وافاه جبريل قاصدا وأقبل ميكائيل بالأمر تاليا

فشقا به صدر النبى لشرحه فكان لما يلقى له الله واعيا

ورداه فى الحين التئاما فما ترى سوى أثر ما زال للشرح باقيا

وجاءا بمنديل وطست ليغسلا بماء الرضا قلبا عن الله راضيا

وعاد أخوه جازعا مخبرا بما جرى من مخوف كان للأمر جاريا

فسارت به من حينه نحو أمه تخاف عليه إن أقام العواديا

وما زال محروسا أمينا مؤمنا سبوقا صدوقا سامى القدر عاليا

حييا وفيا خاشعا متواضعا كريما حليما يستفز الرواسيا

وفى سيره للشام شام بقربه بروق الهدى من لم يكن قط رائيا

أكب عليه فى طريق مسيره إليها بحيرا للهدى مترامیا

ولما رأى تلك العلامة لم يزل لّما وافق الكتب القديمة باكيا

وكانت به من غلة الشوق علة فساق له الله الطبيب المداويا

وقصدته فى ذى المجاز وعمه به ظمأ قد صير الصبر فانيا

فأهوى ولا ماء إلى الأرض راكضا ففجر ينبوعا من الماء جاريا

وكم بان من يسر لميسرة به يرد أخا سكر الغواية صاحيا

فكان إذا اشتد الهجير أظله غمام عليه لا يزال مماشيا

وأخبره نسطور بصرى ببعثه فأظهر من غيب الرسالة خافيا

وبغضت الأصنام للمصطفى فلم يزل هاجرا فعل الضلالة قاليا

وكان يرى ضوءا يلوح لعينه ويسمع تسليما عليه محاذيا

ويأتى حـــراء للتـحنث قـــاصـدا حـبا لأسـبـاب الوصـال مـراعيـا
ويخـرج مـن بين البـيـــوت لعله يحدث عن نفـسه فى السر خـاليا
وكـــان رآه الله أكـــرم خلقـــه فـــأرسـله بـالحق للـخلق هـاديا
وأسرى به ليـلا إلى حضـرة العلا فـما زال فـيهـا للحبـيب مناجيـا
وسـار على ظهـر البـراق كـرامـة له راكـبا إذ سـار جبـريل مـاشيـا
ولما أتـاه الوحى وارتـاع قلبـــــه لشـدة مـا قـد كان منـه ملاقـيـا
فسـارت به عمـدا خديجـة زوجه لتـسـأل حـبـرا بالـزمـانة فـانيـا
وكان امـرأ قد مارس الـكتب قارئا وبات لضـيـفـــان المعـارف قـاريا
فـبشـره أن سـوف يطلع صـبحـه فـيكشف من ليل الغـواية داجـيـا
وقـال له يا ليـتنى كنت حـاضـرا بهـا جذعـا أوليك نفـسى ومـاليـا
ووقـتـك أن يدرك زمـانى يـومـه ومن لى به أنصـرك نصـرا مواليـا
وآيتـــــه فى الغـــار إذ نـزلا به وكـان له الصـديق بالصـدق ثانيـا
وقـــد أرسل الله الحـمـــام لبـــابه وقـارنه بالـعنكبـوت مـضـــاهيـا
فباض على الفور الحـمام وشيدت من النسيج أيدب العنكبوت مـبانيا
فـــدافع عن صـديـقـه ورســـوله بأضـعف أسباب الـوجود مقـاويا
وكم آية خـصت سـراقة إذ مـشى على أثر المختـار لـلغـار قـافـيـا
فـشاهد آثارا مـن الخسف كـاد أن يكون لقـارون السـفـاه مـؤاخـيـا
ولّما دعـــا بالهـــاشـــمى أجـــاره فـأبصـر فى الحين من ذاك نـاجيـا

وأصبحه منه ظهيرا مكرما بخط أبى بكر يخيف الدواهيا

وأخبره أن سوف يفتح أمره مدائن كسرى والبلاد الأقاصيا

ويجعل فى كفيه من بعد فتحها سواراه مما يحرز الدين ساميا

فأنجرها الفاروق فى حين فتحها له عدة بالصدق فيها مباهيا

وآيته فى خيمتى أم معبد وفى الشاة إذ لم تبق تصحب راعيا

وفى الذئب إذ أقعى وأخبر مفصحا عن المصطفى والذئب ما زال عاويا

وفى الضب لما أن دعاه أجابه وقال له لبيك لبيك داعيا

وآيته إذ فارق الجذع فضله فحن إليه الجذع فى الحال شاكيا

وإن انشقاق البدر أعظم آية ترد على من كان للدين زاريا

وفى الجمل الآتى بحضرة صحبه ليشكو تكليف المشقة راغيا

وقصته فى المحل لما دعا لهم فأبصرت سحبا كالجبال هواميا

وسال به وادى قناة لأجله ثلاثين يوما لم يزل متواليا

وفى قصة الزوراء للخلق آية وذكرى لعبد كان للذكر ناسيا

دعا بإناء ليس ينقع مائه لقتلته بالرى من كان صاديا

ففاض نمير الماء من بين بنانه وكان ضوءا للكتيبة كافيا

وكونه يوم الحديبية التى أفاض بها الله البنان سواقيا

وإشباعه الجم الغفير بقبضة من التمر حتى شاهدوا التمر باقيا

وإخباره بالشىء من قبل كونه فيأتى على النص الذى قال حاكيا

فـأخبـر ذا النورين أن سـتصـيبـه على الأمر بلوى تعقب الأجر وافيا
وأخـبـــر عـمـــارا بأن حـيـــاته سيـقطعهـا بالبغـى من كان باغـيا
وقال لذى السـبطين أشقى الورى الذى سيخضبهـا من هامة الرأس عاصيا
يصادف نـور الشيب أبيض ناصـعا فيسـقيه صوب الحتف أحمـر قانيا
ونص على السبط الشـهيد بكر بلا فـقـام له الدين الحـنيـفى ناعـيـا
وفى الحـــــسن الـزاكى أبان بـأنه سـيـصلح بين الناس للأجـر ناويا
وقـــال لقـــوم إن آخـــركم بهـــا مماتا سيـصلى جاحم الجمر حـاميا
وقال إذا مـا مات كسرى فـما ترى سمـيا له أخـرى الليالى مـساميا
وأخـبر عن مـوت النجاشى حـينه وبينهـمـا بحـر من الموج طامـيـا
وقـال على قـرب الحـمـــام لبنتـه تموتين بعـدى فـافـرحى بلقـائيـا
وآياته جـلت من العـــد كـــثـــرة فـمـا تبلغ الأقـوال مـنهـا تناهيـا
وأعظمـها الوحـى الذى خصـه به فـــبلغ عنه آمـــرا فـيـــه ناهيـــا
تحـــدى به أهل البـــين بأســـرهم فكلهـم ألفـاه بـالعـجـز وانيـا
وجـاء به وحـيـا صـريحـا يزيده مـرور الـليـالى جـدة وتعـالـيـا
تضم أحـكام الوجـــود بأســـرها وحكم القـضاء مـثبـتا فـيه نافـيا
وأخـبـر عـمـا كـان أو هو كـائن يرى مـاضيـا أو مـا يرى بعد آتيـا
ووافق أخـبـار النبـيـيـن كلهم وتم بالـغـابات منهـا المـبـاديا
ومـا كـتبت يـمناه قط صـحيـفـة ولا رِئَ يومـا للصـحـائف تاليـا

عليـــه ســلام الله لا زال رائحـــا عليـــه مـــدى الأيام منا وغـــاديا

❊ ❊ ❊

ولتكن هذه القصـيدة الفريدة النبوية، آخـر ما أوردناه فى روضة الورد، فقد طال الكلام واتسع وكـثر السرد، على أنَّ ما تركناه أكـثر مما جلبناه، وقد انثـالت علينا أشغـال شاغلة من خطـوب الدهر، والله يبلغنا من رضوانه مـا طلبناه.

ونسأل الله تعالى حسن الختام، وأن يدفع عن قلوبنا القتام، بجاه سيدنا ومولانا محمّد المصطفى خير الأنام ﷺ، الذى جعلنا مديحه مسك الختام.

❊ ❊ ❊

انتهى الجزء الثانى

أهم مراجع التحقيق

- الإحاطة فى أخبار غرناطة للسان الدين بن الخطيب، طبعة الخانجى، القاهرة ٢٠٠١م.
- جذوة الاقتباس فى ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس للمكناسى، الرباط ١٩٧٣م.
- الكتيبة الكامنة فيمن لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة للسان الدين بن الخطيب، دار الثقافة بيروت ١٩٦٣م.
- مقدمة ابن خلدون، طبعة بولاق ١٨٦٨ م.
- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقّرى، دار صادر بيروت ١٩٦٨م.
- نيل الابتهاج بتطريز الديباج لأحمد بابا التنبكتى، طبعة الثقافة الدينية، القاهرة ٢٠٠٤م.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
القاضى النباهى	٥
التعريف به	٥
من كلام لابن الخطيب عنه	٥
من كلام للسراج عنه	٦
من تآليفه	٦
نسبه	٧
بعض ما كتبه ابن الخطيب عنه فى الإحاطة	٧
شعر له أورده ابن الخطيب	٩
حظوته عند ابن الأحمر بعد تنكره لابن الخطيب	١٠
من كتاب لبعض بنى الأحمر	١٠
شعر اختاره المؤلف أيضًا من كتاب ابن الأحمر	٣٣
فى مدح الغنى بالله وتجديد الدولة الأحمدية	٣٣
فى شكر السلطان لنعمة وصلته فى عاشوراء	٣٧
فى وصف قرنفل بجبل الفتح	٣٨
فى تهنئة مولاه بوصول القائد خالد من تلمسان	٣٩
فى مولد عام خمسة وستين	٤١
فى مولد سنة سبع وستين وسبع مئة	٤٦
ما أنشده فى مولد عام ثمانية وستين	٥٠
ومن إعذارياته سنة أربع وستين وسبع مئة	٥٥

الموضوع	الصفحة
ومن شعره فى الصنيع المختص بالأميرين سعد ونصر	٦٠
ومنه فى صنيع الأمير أبى عبد الله	٦٥
فى صنيع للغنى بالله لإعذار بعض حفدته	٧٤
فى صنيع لبعض أمراء بنى الأحمر	٨١
من عيدياته	٩٣
عيدية أخرى	٩٦
ومن أناشيده فى المواسم العقيقية	١١٤
وله فى بعض نزه مولاه فى شنيل	١٢١
وله فى الشكر على ضروب من التحف	١٢٤
فى هدية من حب الملوك	١٢٥
فى هدية أخرى منه	١٢٥
فى صيد أهدى إليه	١٢٥
فى أصناف من الفواكه أهديت إليه	١٢٦
وله فى يوم عاشوراء	١٢٧
ومن بعض قطعه	١٢٧
فى باكور أهداه إليه	١٢٨
فى جفنة ثريد	١٢٨
فى الشكر عن كتاب	١٢٩
فى الشكر على خلعة	١٣٠
وله فى السؤال عن حاله وقد مرض بعض أبنائه	١٣١

الموضوع	الصفحة
فى مثل ذلك	١٣١
فى التورية باسم قائد	١٣١
فى ملبس اتخذه	١٣١
فيما يرسم على ثوب مهدى للسلطان أبى العباس	١٣٢
فى مثل ما تقدم	١٣٣
وله فى الغنى بالله وهو على جواد أدهم	١٣٤
وله مع هدية زهرية	١٣٤
وله متشوقًا إلى الغنى بالله	١٣٤
ومما كتبه إليه وهو فى حال تألم	١٣٤
فى مثل ذلك أيضًا	١٣٥
فى ذلك أيضًا	١٣٥
وله فى التهنئة بالشفاء	١٣٥
فى هذا أيضًا	١٣٥
فى مثل ما سبق	١٣٦
وله يصف البازى ويشكر ما أهدى إليه من صده	١٣٦
وله يصف غربانًا ويتفاءل	١٣٨
فى التهنئة بعودة الأمير من جبل الشوار	١٣٩
فيما يرسم بطيقان الأبواب	١٣٩
فى مثل هذا	١٣٩
فى مبتنى للأمير سعد	١٤٠

الموضوع	الصفحة
وله الشكر عن هدية	١٤١
وله فى التذييل على بيتى ابن المعتز	١٤٢
وله فى التذييل على بيت ابن وكيع	١٤٢
ومما يرسم للغنى بالله	١٤٣
من مقطوعة	١٤٣
فى عيدية	١٤٤
فى وصف جيش	١٤٤
من قصيدة له ميمية	١٤٦
فى رثاء الغنى بالله	١٤٩
وله على لحد الغنى بالله	١٥٢
وفى رثاء الغنى بالله أيضًا	١٥٥
وله فى استعطاف السلطان أبى الحجاج	١٥٨
وله فى خطاب السلطان أبى عبد الله	١٥٨
ومن شعره فى أبى عبد الله	١٥٩
وله فى خطاب مولاه الوالد	١٦٠
مرثيته لأبى القاسم الحسنى	١٦٠
وله فى مدح شيخه ابن الخطيب	١٦٤
وله مما يخاطب به ابن الخطيب أيضًا	١٦٦
وله فى وصف مصباح	١٧٠
وله فى صدر رسالة إلى ابن الخطيب	١٧٠

الموضوع	الصفحة
وله يصف الزرافة ويمدح مدح السلطان أبا سالم	١٧١
وله يستنجز كتاب المغرب ميلادياتهم	١٧٤
وله إليهم أيضًا فى المعنى المتقدم	١٧٤
وله فى مراجعة الكاتب أبى زكريا ابن أبى دلامة	١٧٦
وله فى السلطان أبى العباس	١٧٦
للمؤلف فى سبب إطالة الحديث عن ابن زمرك	١٧٧
من موشحات ابن زمرك	١٧٧
موشحة له فى الشوق إلى غرناطة	١٧٨
ومن موشحاته فى وصف مبنى الرشاد	١٨٠
ومن موشحاته إلى الغنى بالله	١٨٢
ومن موشحاته معارضا ابن سهل	١٨٤
ومن موشحاته فى الصبوحيات أيضًا	١٩٠
ومن موشحاته فى التهنئة بالشفاء من مرض	١٩٢
موشحة له أخرى فى الهناء بالشفاء	١٩٤
موشحة له فى وصف مالقة ومدح الغنى بالله	١٩٦
موشحة له فى وصف بناء المحدث بمالقة	١٩٨
موشحة له أخرى فى الهناء بالشفاء	١٩٩
موشحة له أخرى فى الهناء بالشفاء	٢٠١
ومن موشحاته فى تهنئة السلطان موسى بن أبى عنان المرينى	٢٠٢
ومن موشحاته فى وصف غرناطة والطرد وغير ذلك	٢٠٤

الموضوع	الصفحة
آخر موشحاته وهى فى مدح الرسول ﷺ	٢٠٥
كلام ابن خلدون فى الموضحات والأزجال	٢٠٧
اعتذار المؤلف عن ذكره الأزجال	٢٢٧
موشحتان غير منسوبتين فى مدح الرسول	٢٢٧
موشحات لابن الصباغ الجذامى فى مدح الرسول أيضًا	٢٣٠
نظم للجذامى فى غير الموشحات	٢٤٧
ومن تخميسه	٢٤٩
من نظمة فى مدح النبى	٢٥١
لابن خاتمة من الموشحات	٢٥١
رجع	٢٥٥
بعض ما ورد من الأثر فى سبتة	٢٥٥
الخليفة الناصر وسبتة	٢٥٦
خلافة الناصر	٢٥٦
رسل ملك الروم إليه	٢٥٧
هدية ابن شهيد إلى الناصر	٢٥٩
الناصر وقد أراد الفصد يوما	٢٦٢
بناء الناصر جامع الزهراء	٢٦٣
بناؤه القناة	٢٦٣
تشييد الناصر مدينة الزهراء	٢٦٤
شىء عن عمران قرطبة	٢٦٩

الموضوع	الصفحة
احتفال الناصر لمقدم ملك الروم وظهور البلوطى على سائر الخطباء	٢٦٩
من خطبة للبلوطى	٢٧٣
بينه وبين الناصر فى التزهيد فى تنميق الغباء	٢٧٤
خطبة لمنذر فى الاستسقاء	٢٧٥
من خطبة له أخرى فى ذلك	٢٣٩
بعض أخباره مع الناصر وحديث القبيبة	٢٧٧
الناصر وأيام سروره	٢٧٨
اعتذار الناصر لأولاد ابنه وما كان بينه وبين الفقيه أبى إبراهيم لتخلفه	٢٧٨
بين الحكم والفقيه أبى إبراهيم	٢٨٠
بيعة الحكم المستنصر	٢٨٢
وفود أردون عليه وحديث ذلك	٢٨٤
شعر للمرادى فى هذا المقام	٢٨٩
شىء عن منذر ابن سعيد البلوطى	٢٩٠
بعض مأثور كلامه	٢٩١
نقد للونشريشى فى تشييع ابن الخطيب على الموثقين	٢٩٢
رجع إلى سبتة وما كان بين ابن خميس وبعض طلبتها	٢٩٣
التعريف بابن خميس ومقتله	٢٩٦
شعر صوفى لأبى مدين	٣٠٤

الموضوع	الصفحة
تخميس على قصيدة لسيدى إبراهيم التازى	٣٠٤
قصيدة لابن مرج الكحل تشبه قصيدة لابن خميس	٣١٠
ولابن مرج الكحل	٣١١
منزلة ابن خميس عند علماء المشرق	٣١٧
شوق ابن خميس إلى بلدة تلمسان	٣١٨
من قصيدة أخرى له فى الشوق إلى تلمسان	٣٢٣
قصيدة للثغرى فى وصف تلمسان	٣٢٤
قصيدة أخرى للثغرى فى تلمسان	٣٢٧
قصيدة منديل ابن آجروم فى ذكر فاس	٣٢٨
رجع إلى نظم ابن خميس	٣٣٠
ولابن خميس يصف تلمسان ويمدح ابن الحكيم	٣٣٠
التعريف بابن الحكيم	٣٣٤
سلفه	٣٣٤
قدومه إلى غرناطة	٣٣٤
شمائله	٣٣٤
رحلته مع ابن رشيد وشيوخها	٣٣٥
تلاميذه	٣٣٥
قصيدة ابن الجياب فى مدحه	٣٣٥
أبيات فى رثائه	٣٣٨
شىء من شعره	٣٣٨

الموضوع	الصفحة
ومن نثره	٣٤٠
بديهته	٣٤٠
التعريف بابن رشيد	٣٤١
رحلته وما أفاد منها	٣٤١
شمائله	٣٤١
شيوخه	٣٤٢
تآليفه	٣٤٣
مذهبه	٣٤٤
شرحه للبخارى	٣٤٤
اجتهاده فى فهم الحديث	٣٤٤
يرى أن الحديث مروى بالمعنى	٣٤٤
قدرته على البيان والارتجال	٣٤٥
تعليق للمؤلف على موقف ابن رشيد	٣٤٥
شهادة ابن رشيد لبعض العلماء	٣٤٥
تقريظ لبعض تآليفه	٣٤٦
شيء من أشعاره	٣٤٦
إشارة إلى بعض الوضاعين فى الحديث	٣٤٧
إجازته لبنت المهيمن ووفاته	٣٤٧
حاله بعد عودته من المشرق	٣٤٨
كتاب الإشادة للعزفى	٣٤٩

الموضوع	الصفحة
لأبى العباس العزفى فى مدح ابن الحكيم	٣٥٠
وله فى مدحه أيضًا	٣٥٠
كلام القاضى أبى حفص فى كتاب الإشادة	٣٥١
التعريف بالقاضى أبى حفص عمر السلمى	٣٥٣
شيوخه	٣٥٣
ولايته	٣٥٣
مولده ووفاته	٣٥٣
من شعره فى مدح أبى يعقوب يوسف	٣٥٤
هو وأبو العباس الجراوى	٣٥٦
للجراوى يهجو بنى غفجوم	٣٥٧
من شعر القاضى أبى حفص يمدح أمير الموحدين	٣٥٨
وله فى الغزل	٣٥٨
لابن شكيل فى مدح القاضى أبى حفص	٣٥٩
ثناء العلماء على القاضى أبى حفص	٣٦٣
من نظم القاضى أبى حفص	٣٦٦
بيت العزفيين أصحاب سبتة	٣٦٦
أبو القاسم العزفى	٣٦٦
بعض تآليف أبى القاسم العزفى	٣٦٧
نسبة العزفيين إلى لخم	٣٦٨
بعض فضائله وأشعاره	٣٦٩

الموضوع	الصفحة
ابناه: أبو حاتم وأبو طالب فى سبتة	٣٦٩
يحيى بن أبى طالب	٣٦٩
محمد بن يحيى العزفى	٣٧٠
صاحب الإرشاد من بنى العزفى	٣٧١
تعريف الإشادة بابن خبازة الشاعر	٣٧١
بعض أشعار ابن خبازة	٣٧٢
قصيدته فى رثاء ابن الجد	٣٧٢
وله فى قبة ليحيى بن الناصر الموحدى	٣٧٥
وله فى الحنين إلى أحبابه	٣٧٥
وله فى مدح النبى	٣٧٦